عبد الله أبو سنينة

احتواء

قصص قصيرة

2016

عبد اللّه أبو سنينة

احتواء

قصص قصيرة

شكر خاص

شكرن لنظام المدارس الذي علمني كيفيت الكتابة.
ولولاه لما كنت قادر علا كتابت هاذا الكتاب...

هدف

لقد كانت زاوية كيس الأرز مثقوبة فتساقطت حبات الأرز كالثلج على رؤوس المتجمهرين حول الشاحنة الصغيرة. شاحنة تحمل ما تحمل من صناديق وأكياس المؤونة وثلاثة موظفين في الصندوق الخلفي يوزعونها علينا. نحن الأرقام؛ فبالغد سيكون تقرير المنظمة "تم توزيع ٤٠ كيس طحين و ٢٠ كيس أرز على ٢٠٠ لاجئ!" لن يقولوا أسمائنا. بل عددنا وكم تصدقوا علينا. لن يذكروا حتى بأن أحد أكياس الأرز كان مثقوبًا.

لكن ما يهم الآن هو أنهم فوق ونحن في الأسفل. نحن بحاجة للطعام.. بحاجة لهم.

لم آكل منذ أيام والآن عندما جاءت شاحنة مؤن لا أستطيع الحصول على طعام. يلتف الجميع حول الشاحنة كحجاج مكة، يتلمسون قضبان الشاحنة وأقدام الموظفين الذين يوزعون الطعام. إنهم الأعلون.

يجب علي أن أقترب أكثر لأحصل على حصة من الطعام. لا يمكن أن أضع اللوم على هزل جسدي؛ فكلنا هزيلون هنا. لكن ربما قصر القامة هو السبب فأنا لست طويلًا كفاية لأرى ماذا يجري في الصندوق الخلفي ولم أستطع أن أتعين كم تبقى من المؤن.

تحيط بي أعمدة بشرية من كل جهة كقفص من عيدان الخيزران تحاصر طريدة ما. لكن بقرارة نفسي أعرف أن تلك الأعمدة طرائد مثلي أيضًا. قد تتفاوت فرص نجاة واحد عن الآخر إلا أننا نبقى الأسفلين.

"كيف يمكنني الصعود إلى أعلى؟"

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يدور في رأسي.. غير القمل بالطبع.

آلمني منظر صناديق المؤونة وأكياس الطعام تتناقل فوق رأسي دون استطاعتي لمسها. حاولت القفز ومد يدي لكن دون فائدة.

حاولت أن أستعطف من كان بجانبي أن يمدني بصندوق طعام.

- سيدي؟!
- ها؟
- هل بإمكانك أن تلتقـ

لم يكمل الرجل استماعه لسؤالي عندما اقتربت يده من صندوق طعام. يده الأخرى كانت مشغولة بكيس بدا عليه الثقل. رمى الرجل الكيس على الأرض ليرفع يده الأخرى.. أحكمت يداه الهزيلتين على الصندوق. فرح الرجل بإنجازه فهرع خارج دائرة المتجمهرين دون أن يلتقط الكيس.

- سيدي؟!

لم يسمع.

- سيدي! لقد نسيت الكيـ

لا يريد أن يسمع.

مع تضاؤل أملي بالحصول على شيء من المؤن، نظرت نحو الكيس الذي تركه. كان مربوطًا بسلك حديدي غير محكم. فككت السلك الحديدي باصبع لتنفتح فوهة الكيس.

لا أعلم ما الذي جعلني أظن بأنه ربما كان هناك شيء يؤكل داخل الكيس. على كل، لم يكن هناك شيء قيّم.. لقد كان يوجد كتب فقط.

"ما الذي أفعله بالكتب؟"

سؤال ثان أصبح يدور برأسي.

لم يدر السؤال الثاني كثيرًا في رأسي لإدراكي بأنه ليس سؤالًا حقًا؛ لقد كان إجابة للسؤال الأول. السؤال المزمن. "كيف يمكنني الصعود إلى أعلى؟"

أمسكت الكتب بيدي الاثنتين، كانوا سبعة كتب سميكة وثقيلة.

حملت أكبرهم ووضعته قاعدة لهرم من الكتب ثم وضعت فوقه الذي يليه بالحجم وهكذا تحت قدمي حتى ازداد طولي أكثر من قدم.

وقفت على الكتب لأرى ما لم أره من قبل. رأيت أوجه الموظفين على صندوق الشاحنة، وفي أيديهم المؤونة. مددت يدي بأمل الحصول على شيء. بدأت أصابعي تلامس الصناديق والأكياس فشعرت بنشوة داخلي لم يعكر صفوها سوى تناقص كمية المؤونة باستمرار. حاولت بجد أكبر للحصول على الطعام.. أخيرًا، حصلت على صندوق كبير.

نزلت عن كومة الكتب وأنا مسرور لإنجازي. كنت ممسكًا بالصندوق بكلتا يدي فلم أعرف كيف كان بإمكاني حمل الكتب. لم أفكر بذلك طويلًا عندما تذكرت بأن لدى جارنا العجوز الذي أصبح كفيفًا الكثير من الكتب التي لن يحتاجها. وكل ما سيكون علي فعله هو استعارة كتب من عنده في المرة القادمة لأصعد عليها لأستطيع الحصول على الطعام.

هدية عيد ميلاد

اليوم عيد ميلادي الثامن عشر. ذهبت إلى المدرسة ووجدت ثلاثة من أصحابي بانتظاري عند الحمامات المتسخة والمخربش على جدرانها. كانت قطعة من الكيك الرخيص تعلوها شمعة يتيمة بانتظاري أيضًا. أخرج أحد الأصحاب ولّاعته من جرابه وأشعل الشمعة وأشعل بعدها سيجارة ومدها لي. سحبت سحبة أولى وأتبعتها بثانية. لم أكتفِ منها، فنشوة التدخين كانت أخّاذة. لكنني لم أرتوِ من شفة سيجارتي فالمدير أدركنا. هرب أصحابي وتركت أنا وحيدًا لتلقي العقاب.

ذهبت ذليلًا إلى مكتب المدير. ستائر مخملية.. بلاط رخامي.. مكتب من خشب البلوط.. لوحة كبيرة لرئيس الدولة مصافحًا مدير المدرسة والابتسامة تعلو وجهيهما. لكن المدير كان لئيمًا جدًا معي! كلماته ملأتها القسوة. زأر بي بشدة "أنت رجل مدلل.. كلّا، أنا مخطئ لأنك لست رجلًا، لكنني محق بوصفي إياك

مدللًا.. التدخين فعل غير مسؤول.. أنت غير مسؤول.. ستُبعَد عن المدرسة لثلاثة أيام." لقد دمرني بكلماته، وسحقني.. تمامًا كما كان يسحق عقب سيجارته تحت حذاءه!

بداية

اليوم، الثالث والخمسون بعد المئة للعام السادس والسبعين يسجل أعظم وصول علمي للإنسان - إلى الآن - خلال هذه الفترة. نحن لسنا أول بشر على الكوكب، نعلم ذلك. لكن لدينا معلومات قليلة جدًا عمّا حصل للأسبقين. لن أقول الصورة لم تكتمل بعد فنحن لا نملك إلّا لمحات غير واضحة لصورة عن العالم السابق.

نجا قليل منا. لكننا لا نعلم ماذا حصل حقًا لإبادة البشر والشجر والحجر! أسميناهم "الأوائل" وهم من بقو على قيد الحياة داخل ملاجئ عملاقة، هم أجدادنا وأباؤنا، والجيل الأول من الإنسان الجديد ولد داخل تلك الملاجئ. لم يتبقى أحد من الذين شهدوا الموت الجماعي لإخواننا البشر. حصلنا على قصاصة صغيرة من صحيفة من العالم السابق. كان مكتوبًا بها "العالم كله هيروشيما!".

كانت تلك القصاصة مخبأة داخل صندوق دُفن تحت الأرض على عمق مترين في أحد الملاجئ الضخمة. إن الملاجئ كبيرة جدًا إذ وصل طول وعرض بعضها إلى عشرات الكيلومترات وحَوت الحيوانات والطعام والكثير من الأمور التي سرّعت في عملية تطورنا الحالي، بدا الأمر كأن النهاية كانت متوقعة.

لا يوجد أحد من الذين عاصروا نهاية العالم السابق، لم يبقى أحد من "الأوائل" ليساعدنا أو يخبرنا ما حصل، ولم يُدون أحد ذلك! لا يوجد سوى تلك القصاصة التي وجدناها تحت الأرض.

هل "هيروشيما" هو الفايروس الذي قضى على الحياة السابقة؟ أم هو طاغية دمَّر العالم؟!

لمَ أهتم كثيرًا بما حصل للعالم السابق؟ الإجابة سهلة: في أحد الصفحات التي وجدناها داخل الملاجئ قرأت عبارة "وقفت على أكتاف من سبقوني من العلماء." القائل هو شخص اسمه نيوتن، عالم في العالم السابق. وأنا بصفتي عالمًا فإنه من واجبي المساعدة في بناء هذا العالم.

نحن نعلم أن الإنسان وصل إلى النجوم إلّا أننا لا نعرف كيف، ليس بعد. لكن نحن على الطريق الطريق الصحيح لقيادة هذا الكوكب إلى النماء والازدهار، فنحن اليوم توصلنا إلى أعظم اكتشاف على مر تقويم البشر الجديد، اكتشاف سيقودنا إلى عالم أفضل لا محالة.

تعب العلماء والمتخصصون، تعب الإنسان كثيرًا للوصول إلى هذا الإنجاز الذي سيدفع بعالمنا درجات كبيرة نحو التطور، فنحن نؤمن بأن السيطرة على أكبر الأمور تأتي بعد التحكم بأصغرها. اليوم، وبكل فخر واعتزاز أقولها، استطعنا التوصل إلى طريقة نشطر فيها الذرّة.

استقلال

لقد حققنا المحال وأعلنا الاستقلال بعد دحرِنا للاحتلال ليصبح هذا موضوع كل نشيد وكل موّال; فما بعد النكبة والقهر لا يأتي إلا الفرج والنصر. هذه هي الحقيقة وليست من نسج الخيال، ولهذا السبب خصصنا يومًا كاملًا نحتفل فيه بتحررنا، وذلك اليوم هو الثلاثون من شباط من كل عام.

استسلام

لم أرغب يومها بالذهاب إلى الجامعة فالجو كان ماطرًا وعاصفًا جدًا لكن وجب علي الذهاب لحضور محاضرة في مساق "أنظمة الحكم" والذي كان مسيئًا لمعدلي التراكمي. كان الدرس سيكون حول الأسباب التي تحدث عنها ابن خلدون في مقدمته والتي بدورها تساهم بعدم تجاوب الشعوب مع نظام حكم جديد جيد جاء بعد حكم استبد شعبه لزمن طويل. ذهبت يومها سدى فالمحاضر لم يأتي فسيارته كانت قد علقت بأحد الطرق قبل وصوله الجامعة فلم نأخذ المحاضرة فعدت إلى البيت مكسور الخاطر لأننا لم نأخذ المحاضرة المهمة.

قبل وصولي المنزل سمعت صوتًا داخل مكب النفايات وعلمت فورًا أن القط المرقط هو من أصدر الصوت فهو معتاد على البحث عن غذاءه داخل مكبات النفايات فلم أكترث كثيرًا وأكملت طريقي نحو البيت. وعند فتحي لباب المنزل وإدخالي قدمي اليمنى

لاحظت الفارق الكبير بين درجة الحرارة في الداخل والخارج فأشفقت على القط المرقط فذهبت وجلبته إلى الداخل. جففته أولًا ثم وضعت له حليبًا داخل صحن وقطعت له بعض المرتديلا لكنه لم يقترب رغم أنه كان يحتاج إلى الغذاء. ظننت أولها أنه شعر بالحرج أن يأكل أمامي فذهبت من عنده لكن عندما عدت رأيت الطعام مرميًا والحليب مسكوبًا على الأرض دون أن ينقص منهما شيئًا.

كنت تعبًا يومها فذهبت لأنام قليلًا رغم أن الساعة لم تكن قد بلغت السادسة حتى. أخبرت أخي الصغير بأنه يمكنه اللعب مع القط وإطعامه إن قبل الأخير ذلك. استيقظت من نومي بعد حوالي خمس ساعات وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة. لم يكن الجو العاصف قد هدأ. سألت أخي عن القط فأخبرني أنه هرب. علمت أن لا مهرب للقط سوى مكب النفايات الذي وجدته به. فعلًا، ذهبت ووجدته ينبش عن الطعام! حملته معي وعدت به إلى المنزل مجددًا.

كان علي التحضير لدروس اليوم التالي ووجدت أيضًا أن الدروس ستكون أكثر من المعتاد لأن المحاضر قرر تعويض المحاضرة الفائتة في اليوم التالي. قرأت قليلًا لكن دفء الفراش أغراني للذهاب إلى النوم. قبل أن أذهب إلى النوم تأكدت أن نوافذ وأبواب المنزل مغلقة.

عندما استيقظت كان أخي الصغير قد ذهب إلى مدرسته فبحثت بنفسي عن القط داخل المنزل فلم أجده. لم أبحث طويلًا لعلمي أن الطريق إلى الجامعة يأخذ وقتًا أطول أيام المطر. خرجت من المنزل ومشيت قليلًا نحو الشارع الرئيسي بحثًا عن سيارة أجرة، لكن قبل إيجادي لسيارة أجرة وجدت القط مغطى بالأوساخ داخل مكب النفايات وبفمه بقايا طعام فاسد! وجدت القط ووجدت معه موضوع المحاضرة التي عوضناها يومها.

ردة فعل

لقد أمضيت الكثير من الوقت وبذلت الكثير من الجهد لتحسين آداء فريقي، بدنيًا ومهاريًا. تعرضت للنقد أحيانًا بسبب تعاقداتي أو تركي لبعض اللاعبين، والاستراتيجيات التي اتبعتها بالملعب كانت موضوعًا للنقد في الكثير من الصحف. لكني أعرف أنني كنت على حق، ففريقي على بعد تعادل فقط للوصول إلى الدرجة الممتازة. سنلعب الآن آخر مباراة في هذا الموسم على ملعبنا وبين جماهيرنا.

فريقنا مكتمل الصفوف، لا إصابات ولا لاعبين مُبعَدين. والطقس صافٍ اليوم وهذا مناسب جدًا لطريقة اللعب التي سنتبعها اليوم، تمريرات أرضية قصيرة وإنهاك الفريق المنافس حتى نصل لمرماهم، وبعدها سنكثف عدد لاعبي الدفاع كي نحافظ على الهدف. سنحاول مبكرًا افتتاح التسجيل رغم أن التعادل يكفينا، لكن لضمان التأهل سنحاول التسجيل خلال الدقائق الأولى.

امتلأت مدرجات الملعب بالجماهير متزينة بألوان فريقنا. لا مجال لخذلها!

أعطيت التعليمات الأخيرة للاعبين الذين صعدوا إلى أرضية الملعب بمعنويات مرتفعة، فهذه المباراة ستنقلهم إلى اللعب بالدرجة الممتازة.

بدأت المباراة.

تكتل لاعبو الفريق الخصم في مناطقهم فلم تتح لنا أي فرصة للتسجيل خلال الشوط الأول رغم استحواذنا المطلق على مجريات اللعب.

الشوط الثاني.

كان الشوط الثاني نسخة عن الأول، استحوذنا تمامًا على اللعب لكن دون أهداف. لو انتهت المباراة دون تسجيل أي هدف كان سيكون أمرًا مفرحًا لنا، لكن من هجمة مرتدة سُجّل علينا الهدف الأول. صمت تام في الملعب.

في الدقيقة الأخيرة من زمن المباراة عرقل أحد مدافعيهم رأس حربتنا فتحصلنا على ضربة جزاء كانت ستكون كفيلة لحملنا إلى دوري الأضواء، فبعد التسديدة سيطلق الحكم صافرة النهاية.

تقدم أفضل لاعبي الفريق للتسديد، وسدد، وأضاع!!

اشتطت غضبًا وصرخت بوجه الشاشة، ومن شدة غضبي دفعت شاشة الحاسوب فوقعت على الأرض وانكسرت تحت سيل من شتائمي. سمعتني أمي وأنا أشتم الحاسوب واللعبة واللاعبين بصوت عالٍ فأخبرت أخي الذي كان يأكل بالمطبخ أن يعاقبني، لكنه اكتفى بتحذيري شفويًا عن بُعد.

بعد دقائق أنهى أخي طعامه في المطبخ وجاء إلى الغرفة ليتفاجأ برؤية شاشة الحاسوب مكسورة على الأرض ليبدأ بشتمي قبل أن يقترب مني ليلطمني على وجهي.

تبعية

تبًا له! دائمًا يفتعل المشاكل وأتحمل أنا العواقب، إنه حقير! لم يتوقف الأمر عند مضايقته للطلبة بالمدرسة والشارع، ولا حتى لشتمه معلمه بالصف! يريد الآن أن يقتحم متجرًا للأجهزة الكهربائية! وأنا أعرف أنني أنا من سيتحمل العواقب، تمامًا كما أتحملها عند كل مشكلة يفتعلها. لكنه يقول أن الأمر مختلف هذه المرة فلا عواقب بعد ما سنفعله. يقول أنه من السهل اقتحام المتجر المستهدف الليلة. وطبعًا وجب علي الذهاب معه.

لدى صاحب المتجر عزيمة كبيرة الليلة وسيكون مشغولًا بها، ولدى كاميرات المراقبة نقاط عمياء كثيرة. سأستغل هذه النقاط لمساعدتي في التسلل إلى المتجر عبر نافذة المستودع.

المشكلة أن النافذة مرتفعة عن الأرض ومن الصعب الوصول إليها بسهولة، أو على الأقل دون إصدار أي صوت. إن تعثر ووقع

سيتسبب ذلك بجلب سمع الناس إلى المستودع وهذا سيُفشل محاولة الاقتحام.

دخلت من النافذة دون أدنى مشاكل وهذا ما كنت أتوقعه، لا يمكنك إيجاد مهمة أسهل من هذه! لكن المهمة المطلوبة، والصعبة نوعًا ما، الهروب بعد إيجاد "الورقة".

لقد بحث عنها بمساعدة مصباح كهربائي لكنه وضع شدة الإنارة على أخف درجة كي لا يلفت أنظار الناس إلينا فإنارة أضواء المتجر بالتأكيد ستضعنا بموقف حرج. بدأ البحث بالمستودع قبل أن يذهب إلى المتجر. يجب البحث في الكثير من الأماكن بحذر. ماذا سيفعل الآن؟! يا للهول! إنه يريد أن ينير جميع أضواء المتجر!!

تبًا له!! كلّا، كلّا، تبّا لي! فأنا لا أتعلم!!

غروب

- لم نحمل متاعًا كافيًا!

قالت زوجتي محتجة.

- كافيًا لماذا؟

سألت بينما كنت أنظر إلى الغروب.

- للرحلة!

أدرت رأسي نحوها وسألت مستغربًا:

- رحلة؟!
- نعم.. حتى نعود!
- ومتى سنعود؟!
- برأيي أن نعود عندما ينقصنا الطعام!

أعدت نظري نحو الغروب ورأيت الشمس تنزل وراء الأفق، ومنذ ذلك الحين، لم تشرق مجددًا.

وجه حنظلة

"صفد، هناك ولدت وهناك سأموت وإن لم أكن سأموت هناك، سأموت وأنا أحاول أن أموت فيها." ظللت أقول هذا لنفسي بعد خروجي أنا وعائلتي من صفد. خرجنا ولم آخذ معي شيئًا، أذكر عندما ركضت عائدًا إلى منزلنا لأجلب مدية خشبية صنعتها بنفسي لكن أمي أمسكتني وعنّفتني صارخة "وين رايح يا محفوظ؟! أسبوع بالكتير وراجعين." رغم النبرة الغاضبة التي قيلت بها تلك الكلمات إلّا أنها ألقت على قلبي بسكينة جردته من أصغر دقة قلقة. خرجت من صفد دون أن آخذ معي شيئًا لكن كل شيء أخذ مني.

مر أسبوع ولم نعد. بدلًا من ذلك رسينا في دمشق وهناك تحولت الأسابيع إلى شهور والشهور إلى سنوات والسنوات إلى معاناة. بدا على جميع من غادر صفد أنه نسيها. بحالتي أنا كان لدي شيء يذكرني بها فبعدما خرجنا من فلسطين لملمت حبيبات

التراب القليلة التي كانت عالقة في حذائي. لا أعرف إن كانت تلك الحفنة ستكون أكبر لو لم يكن حذائي مثقبًا أو أن تلك الثقوب هي التي سربت التراب إلى قدمي ولذلك لم أعلم إن كان علي شتمها أم شكرها! أمر شتمته كان تنقلنا المستمر بعد دمشق. تنقلنا إلى كل مكان إلّا المكان الوحيد الذي وددت الذهاب إليه.

مكثنا في لبنان لسنوات وبقي الجميع هناك إلّا أنا فأنا قطعت نصف الكوكب وأنا في الثالثة والعشرين نحو أمريكا الجنوبية متهربًا من الماضي.. إلّا من حفنة تراب إتخذتها رفيقًا في سفري وزميلًا في سكني.

في أواخر عشرينياتي وأول ستينات القرن الماضي تزوجت فتاة من الجالية الفلسطينية هنا. كانت والدتك تحلم بتأسيس صحيفة بالحرف العربي هنا لكنها لم تستطع تحقيق ذلك الحلم لكنها حققت حلمًا أكبر من ذلك عندما عادت إلى فلسطين.. حتى وإن كانت زيارة مؤقتة. قدمت أوراقي وقتها لأسافر معها لكن السلطات هنا منعتني من مغادرة البلاد لأسباب أمنية ظرفية وأخبروني بأنه علي المحاولة لاحقًا.

حاولت بعدها ولم يتغير رد السلطات. ما تغير كان وفاة والدتك دون تأسيسها للصحيفة. كانت قريبة من ذلك كثيرًا فهي كانت قد جمعت مئات المقالات عن فلسطين والعالم العربي واتفقت مع كتاب ومؤرخين عرب كثيرين وجهزت أول بيت سكن أهلها فيه هنا ليكون مكتب الصحيفة. فعلت هذا كله وهي حامل بك. نشرت والدتك الكثير عن فلسطين في مجلات وصحف تنشر باللغة الإسبانية لكن وطنيتها وعروبتها كانت أكبر من أن تكتفي بذلك فأرادت أن تكون سببًا في تحريك كل المغتربين عن وطنهم. كانت مثالًا شامخًا على أننا خرجنا من وطننا لكن الوطن لم يخرج منا فكانت آخر كلماتها ووصيتها أن أنهي ما بدأته هي.

انتشرت الصحيفة في أرجاء البلاد كلها وأصبح لفلسطين صوت هنا لكنني رغم ذلك لم أتخلى عن حلمي الأزلي برؤية فلسطين مجددًا. أن تكون لاجئًا فلسطينيًا يعني أنك تتميز عن باقي مليارات الكرة الأرضية بحلم آخر، حلم العودة. بعد سنوات سُمح لي مغادرة البلاد فسافرت إلى الأردن وبخاطري أنني سأذهب بعدها لزيارة فلسطين. كنت أعلم أنني لن أستطيع زيارة صفد لكنها روضة في الجنة وباقي الجنة لا يقل ربانية

عنها. على ما يبدو، أنا لم أكن صالحًا أو قديسًا لأستحق دخول الجنة فعلى جسر الأردن أُعلمت أنني ونسلي لن نستطيع دخول فلسطين. الحالة الوحيدة التي كانت ستسمح لي أو أي أحد من سلالتي بدخول فلسطين هي أن نتحرر.

أُخرج آدم وحواء من الجنة السماوية وأنا أُخرجت من الجنة الأرضية. كان عمري ثلاثة عشر عامًا عندما خرجت منها ولم أعش يوما آخر بعد ذلك اليوم فالإنسان خلق من طين وطينتي مجبولة من تراب فلسطين.

نتغزل بفلسطين وهي بزيّ الحداد.. ماذا سنفعل يوم ترتدي فستان زفافها؟! لا أعلم، ولن أعلم فالمهر الذي قدمته لم يكن كافيًا. ما أصعب أن تذوق طعم الجنة ثم تُلعن منها. أنا هنا ملعون على فراش الموت هذا فمهدي لن يكون قبري. سيكتبون على شهادة وفاتي أني توفيت عن عمر يناهز التاسعة والسبعين، ست وستون منها كانت مجرد سنوات لا حياة فلا حياة لفلسطيني بعيدًا عن وطنه. أنا لست حنظلة ووالدتك ليست حنظلة بل أنا وهي وكل من شُرِد ونُكِّب حنظلة.

يا بني، وصيتي لك هي أن تعتني بحفنة التراب التي أكتنزها وأن تؤمن بأن وجه حنظلة سيبان يوماً ما وأن تبذل أيضًا قصارى جهدك لتحقيق ذلك.

والدك، محفوظ عقّاد

١١-أغسطس-٢٠١٤

سانتياغو

قضـيـة

جاء رجلان إلى القاضي يحتكمان في مخاصمة بينهما فاشتكى الرجل الأول "لقد لكمني هذا الرجل!" فرد الآخر "كلا! لقد وكزته باصبع فقط!" سأل القاضي الرجل الأول "وهل آلمك؟" فأجاب "ليس حقًا!" ثم سأل القاضي الرجل الثاني "وماذا جاء بك إلى هنا؟" فأجاب "إنني أرفع قضية ضد هذا الرجل الذي كسر اصبعي!" سأل القاضي الرجل الأول "هل كسرت اصبعه حقًا؟" فرد الرجل "لقد انكسر عندما لكمني!" فصصحه الرجل الثاني "وكزتك باصبع واحد فقط!!" كان سؤال القاضي التالي موجهًا للرجل الثاني "لماذا وكزته؟!" فأجاب "لأنه سرق سترتي الصوفية التي تقيني من برد هذا الشتاء!" استفسر القاضي مجددًا "تلك التي يلبسها الآن؟" أجاب الرجلان سويًا "نعم!" قال القاضي "جيد! فالسترة ليست قضيتنا!" ارتفع صوت الرجل الثاني بعدما لم يصدق كلام القاضي "كيف ذلك سيادة القاضي؟!" أجابه القاضي "جئت لتشتكي عن كسره لاصبعك

وليس السترة الصوفية!" سأل الرجل الثاني مجددًا "وماذا عن كسره لاصبعي؟" فحكم القاضي "ليس ذنب الرجل أن اصبعك ضعيف. أنت بدأت الاعتداء وهذا ذنبك!" انخفض صوت الرجل الثاني يأسًا وقال "والسترة؟!" لم يجب القاضي فكرر الرجل سؤاله "والسترة؟!" لم يجب القاضي هذه المرة أيضًا لكن الرجل الثاني بقي يسأل "والسترة؟!" إلى أن وقف القاضي ولبس معطفه الثقيل وذهب.

مفتاح

استيقظ جبريل ممسكًا القلم الذي كان يكتب بواسطته في الليلة السابقة حين غلبه النعاس. رأى والدته مكبلة القدمين واليدين، تعجّب من ذلك لكنه لم يقل شيئًا بخصوص ذلك الأمر. شكرها على وجبة الفطور وقبّل يدها دون أن يجد عناءً بإزاحة القيد المعدني عن ظاهر يدها. اغتسل ثم تهندم وحمل كتبه الجامعية ونزل إلى الشارع الرئيسي لإيجاد سيارة أجرة.

توقفت له سيارة. كان المقعد الأمامي هو الوحيد الشاغر فركب فيه ووضع الكتب في حضنه.

نظر جبريل إلى يساره فوجد يدي السائق مكبلتين وهما موضوعتان على عجلة القيادة وكانت قدماه مكبلتين أيضًا، وكانت السلاسل على قدميه تصطك ببعضها البعض كلما داس السائق على دواسة مختلفة.

استغرب جبريل من واقع بقاء السائق مكبلًا.

نزل من السيارة أمام باب الجامعة ونزل الركاب الثلاثة من السيارة وكانوا جميعًا مكبلين.
رأي جبريل صديقًا له على باب الجامعة فسلم عليه وتبادلا الحديث طوال الطريق من باب الجامعة إلى ساحة كلية التربية حيث يدرسان.

كان غالبية الطلبة مكبلين، بعضهم بالأيدي وبعضهم بالأقدام والبعض بالأطراف الأربعة.

- لمَ لا تستخدمون المفاتيح؟!

سأل صديق جبريل الطلبة المكبلين.

- أين هي؟

رد أحد المكبلين في أيديهم سائلًا.

- فوقكم، بجوار الشمس.

ضحك جميع من كان مكبلًا إلّا الذي استفسر عن مكان المفاتيح.
رفع الشاب نظره إلى أعلى ليغمض عينيه بسرعة وينزلهما

بسبب النور القادم من الشمس. وضع السائل يده على جبينه لتلقي بالظلال على وجهه قبل أن يرفع نظره إلى الأعلى مجددًا.

أبقى السائل نظره إلى أعلى ورفع يده نحو المفتاح. ألقى السلام على الشمس وأخذ المفتاح.

سـؤال

- في أي سنة حدثت النكبة؟

سأل المعلم طلاب الصف الثامن.

- لا أعلم!

رد طالب.

- ربما.. السنة الماضية!

قال آخر.

- ألا تعرفون؟!

استفسر المعلم متعجبًا.

- لم أقرأ المعلومة على الإنترنت.

تحجج طالب ببرود، فأدرك المعلم غلطه بالسؤال; فهو قد تأكد أنه كان من الأدق أن يسأل "متى بدأت النكبة؟"

الجريمة

"تت تت تت تيت تت تيت تت تت تت تت تت تت تت تيت
تيت تت تت تيت تيت تيت تت تيت تيت تت تت تت تت
تت تيت تت تت تيت تت تت تت تت تيت"

استيقظت على صوت المنبه.

- ألم تجد غير هذا الإزعاج منبهًا لك يا عمر؟!

سألني أيمن، زميلي في السكن.

- لا أذكر أنني وضعته أصلًا! لا يوجد محاضرات اليوم!

يقوم أيمن من النوم قبلي دائمًا فهو مجتهد ومتفوق بكل شيء يخوض غماره. الأول على الدفعة وأفضل لاعب بفريق الجامعة لكرة القدم، واليوم، سيتم تكريمه بجائزة أفضل شاعر بالجامعة. قد يكون ربط ربطة العنق هو الأمر الوحيد الذي أستطيع فعله على خلاف أيمن. نهضت من الفراش بحالة أرثى لها وساعدته

بربطة العنق. أحسست بتشنجات بيدي وهما تربطان ربطة العنق حول رقبة أيمن.

- سآتي أنا بالأغراض.

قلت لأيمن.

- يمكنني جلب ما يلزمنا أثناء عودتي إن أردت!

رد أيمن وهو يرش العطر على بدلته.

- لن يكون هناك مجال بيديك؛ يد لحمل الجائزة واليد الأخرى لاحتضان أجمل فتاة من الحفل.

قلت له ممازحًا.

احمرّ وجه أيمن من مجرد الفكرة، رغم شخصيته الجذابة إلّا أنه يشعر بتلبك أمام الحشود وأمام الفتيات.

بحثت بنظري على مكتب أيمن عن قلم وورقة. حملت قلم حبر وورقة اقتصصتها من أحد دفاتر أيمن وذهبت نحو المطبخ أسجل ما يلزم السكن.

من السخيف أن يجلب شخص واحد ما يلزم لأكثر من شخص!

ألم يكن من الأفضل أن يشتري كل شخص ما يلزمه بنفسه؟! بدأت بتسجيل ما يلزمنا. وبينما كنت أكتب على الورقة دلف أيمن إلى المطبخ.

- منذ متى تكتب باليد اليسرى؟!

سأل أيمن مستغربًا.

نقلت القلم من اليد اليسرى إلى اليمنى.

لا يهم حقًا إن كتبنا باليمنى أم اليسرى أم الإثنتين معًا، فنحن لن نكتب بجودة ودقة ما يكتب ذلك الوغد فهو يكتب من رأسه.

ذهبت وعدت من السوق خلال ثلاث ساعات واشتريت حاجيات لا أذكر أنني سجلتها لكنك تفعل أمورًا لا تدركها أو تتذكرها وأنت نعس.

لم يكن أيمن قد عاد من حفل التكريم لكنه جاء بعدي بدقائق قليلة. كنت أرتب الأغراض التي اشتريتها في الثلاجة وعلى الرفوف وفي خزائن المطبخ.

دخل أيمن المطبخ فسألته مداعبًا حتى قبل أن يلقي السلام.

- أين الحسناوات؟!
- في رأسك.

أخرجت دجاجة من أحد الأكياس التي جلبتها ووضعتها على المجلى وأخرجت سكينًا من الجرار الأول وبدأت أقطع بالدجاجة لأغلفها لحفظها. هذه المرة الأولى التي نشتري بها دجاجًا نيئًا.

- من اقترح أن نشتري دجاجًا نيئًا؟!

سأل أيمن مستنكرًا.

- إن لم يعجبك اذهب واشتر أغراضك بنفسك!

لم يرد أيمن وخطا نحو الباب خارجًا قبل أن يلتف مجددًا نحوي وأنا أقطع الدجاجة.

- لقد كانت السكين بيمينك لكنها الآن باليسار! هل أصبحت أشولًا؟!

سألني أيمن متعجبًا من حقيقة استخدامي ليدي اليسرى.

- إن يدي اليسرى أقوى.
- كلّا! إنها ليست كذلك!

اقترب أيمن مني ونظرة الشك تعلو وجهه.

- لقد تغيرت!

قال أيمن.

- لم أتغير!
- أنت لم تعد عمر نفسه!
- حقًا؟!

سألته باستخفاف قبل أن أسحب السكين من الدجاجة وأغرسها بين ضلوعه لكنه سحب شوكة معدنية من مصفاة الأوعية

الموجودة على المجلى وغرسها بكتفي الأيسر فسقطت السكين من يدي وسقط أيمن كذلك على الأرض.. أمام قدمي.

رأيت أيمن على الأرض فارتعبت حتى قبل أن أرى السكين، علمت أن أمرًا شيئًا قد حصل لأيمن، ولي أيضًا، فأنا رأيت قطرات دماء تتساقط من كتفي الأيسر.

السـجـين

في ليلة ظلماء، حيث لا قمر بالسماء ولا سبيل للضياء، كان سجين في زنزانة لا تتسع لأكثر من فرد، يصك أسنانه ويفرك بدنه من شدة البرد. متكور كجنين كان السجين، رأسه إلى أسفل وركبتيه عند الجبين. لم يكن هناك إلّا نافذة صغيرة في الحائط، لم تكن كافية لإخراج رائحة الغائط. أسودًا كان لون جدران الزنزانة، ولم يشعر السجين سوى بالمهانة.

ما الذي أوقع به في ذلك المكان، حيث لم يجد عطفًا ولا حنان؟

ربما كان السجين نفسه! هذا إن أخطأ بأمسه!

أو لعله كان الظلم! فأضاع العمر والحلم!

بينما كان يتأوه على السرير، سمع السجين صوتًا كالصرير. تساءل إن كان ذلك صرصارًا، أو ربما كان عصفورًا. لكن لا يعيش هناك غير الموت، لا حركة ولا يُسمع به الصوت.

نهض السجين إلى الشباك وكان حقًا يشعر بالارتباك. سمع الصرير من جديد فأمسى بصره من حديد فرأى ضوءًا باهتًا وسمع أنينًا خافتًا. بجانب الضوء كان مصدر الأنين، جسم يتلوى داخل كيس متين، ورأى السجين رجلًا يحمل بيده معولًا.

ارتعب السجين!

فأصبحت ركبتاه كالعجين!

لم يكن السبب ما رآه، بل كان مشهدًا من ذكراه. أمست ذاكرته كل ما يرى فتمنى أن يُوارى تحت الثرى; فماضيه تعذيب وتقتيل مليئ بالصراخ والعويل، وحاضره أمنية بحبل طويل.

الهروب

"يمكن لهذه الكتب أن تنقذك! إنها أفضل سلاح بإمكانك الحصول عليه! لمَ لا تدرس؟! يموت الناس للحصول على فرصة للدراسة! الساعة الثامنة، يجب أن تكون بالمدرسة الآن!" صرخت بي أمي صباحًا لأنني كنت متأخرًا عن المدرسة. لقد أعطتني محاضرة عن أهمية التعليم لمقاومة الاحتلال بينما كانت تشير إلى حقيبتي المدرسية. أومأت برأسي مشيرًا إلى موافقتي رأيها رغم أنني لم أكن كذلك حقًا; فبطريقة ما، إن الاحتلال من أفضل الأمور التي حصلت لنا فلو لم يكن هناك احتلال لما اهتممنا كثيرًا بالتعليم، أليس كذلك؟ أم أن المسألة فقط بالكيفية التي يعرضها علينا الأجيال السابقة؟ فأفراد عائلتي الذين يكبرونني يظهرون التعليم على أنه علاج لمرض ما لكنني أظن أن التعليم حصانة فلو كنا متعلمين حقًا بالمرتبة الأولى، لما كنا تحت الاحتلال الآن، على ما أعتقد!

أعلم أنه من الغريب لمدافع عن التعليم بأن يكون متأخرًا عن المدرسة لكن الحقيقة أن الحياة أهم.

أولويات.

وأولويتي هي أن أبقى على قيد الحياة.

شخصيًا، عشت ببؤس طوال حياتي لكنها على الأقل "حياة". أعلم أنني بائس لكن كلما ازداد بؤسك ستزيد فرصك بإيجاد السعادة; فالسعادة أمر نسبي وأي شيء غير العيش ببئر القذارة هذه سيكون أفضل. لكن مهلًا! إن كانت مدينتي بئر قذارة فماذا سيجعل ذلك منا؟!

توقفت عن الحديث مع نفسي عند تلك النقطة وحملت الحقيبة الثقيلة على ظهري. توقفت قليلًا عند الباب. نظرت إلى أمي وأختي الرضيعة بين يديها. منزلنا عبارة عن مقطورة حصلنا عليها بعدما فقدنا منزلنا في الحرب الأخيرة. لم أنظر إلى جدران المقطورة فلا يوجد أي ذكريات معلقة عليها. تلك الجدران رمز للذل. غادرت المقطورة وأغلقت الباب خلفي.

لم أكن ذاهبًا إلى المدرسة، عوضًا عن ذلك، كنت بطريقي إلى الشاطئ حيث كانت تنتظرني عبّارة ستحملني نحو المستقبل. عملت بعد المدرسة قرابة السنة لأستطيع تأمين مبلغ سعر تذكرة العبّارة ومبلغ احتياطي. عملت بمصانع مختلفة وبالأمن وبالصيد وبأعمال أخرى أيضًا.

كان اليوم هو اليوم الذي سأترك فيه كل شيء ورائي لكنني حرصت على عدم معرفة أي أحد برحيلي قبل أن أرحل. لم أسلك طريقًا مكتظة بالناس كي لا يتم التعرف علي. إن رآني أحد من معارفي فلن يتوقف عن الأسئلة:

لم أنت لست بالمدرسة؟!

هل تريد العمل معي مجددًا؟

كيف حالك؟

إلى أين أنت ذاهب؟

توجهت شمالًا نحو الحدود ومن هناك نويت أن أتجه إلى الغرب نحو الشاطئ لكن خطتي لم تسر كما أملت. بعدما وصلت الحدود

الشمالية غيرت مساري تجاه الغرب. لم يكن هناك أي إشارات تدلني على الطريق سوى السياج المكهرب. لم يكن علي سوى المشي بمحاذاته حتى أصل الشاطئ. كنت أعلم بأن الرحلة ستكون شاقة وطويلة، حتى لو لم تكن الشمس عامودية على رأسي بعد.

كانت حقيبتي ثقيلة بشكل لا يحتمل فرميتها على حصى الصحراء لأمشي بشكل أسرع وأقل إجهادًا. مشيت لأربع أو خمس خطوات قبل أن تدوس قدمي اليسرى على لغم أرضي. لم ينفجر اللغم بسرعة فهو من النوع الذي ينفجر عند إزالة الضغط عنه. لا يكون انفجار هذا النوع قاتلًا دائمًا، فأحيانًا سيتركك الانفجار مبتور اليد أو القدم أو أكثر من طرف، وبصحراء كهذه، هذا يعني الموت أيضًا لكن بطريقة أبطأ وأكثر إيلامًا.

علي أن أركز وأن أبقي الضغط على اللغم. هذا اللغم، من منظور معين، مثل الشعوب: إن أبقى الحاكم قدمه فوقهم بصرامة لن يستطيع الشعب التحرك لكن إن خفف الحاكم من وطأة قدمه

على شعبه سيثورون وينقلبون ضده. وأنا حاكم هذا اللغم، يجب أن أبقي قدمي عليه بقوة.

لو لم أرم الحقيبة لوضعتها بحذر على اللغم بدل قدمي. لقد صرخت أمي علي صباحًا، "يمكن لهذه الكتب أن تنقذك!" لقد كانت محقة.

الساعة الآن الثانية عشرة وخمسة وأربعون دقيقة. ستنطلق أجراس المدارس بعد قليل وسيذهب جميع الطلبة إلى منازلهم.

كنت أنوي أن أتصل بعائلتي بعدما أبتعد عن الشاطئ لكن العبّارة بعيدة الآن من دوني آخذه أحلامي بمستقبل أفضل معها.

قدمي خدرة. لم أعد أشعر بها. بدأ الصباح بحلم بمستقبل أفضل لكني الآن أحلم بأي مستقبل كان.

يزداد لهيب الشمس حرارة مع كل لحظة وإن أغمي علي الآن سأموت اليوم حتمًا. وفرص إغمائي ليست مطمئنة فأنا عادة

أصاب بدوار تحت الشمس الحارة وهذا حرمني من العديد من حصص التربية الرياضية بالمدرسة.

أحب الرياضة. أحب الروح التنافسية التي تدفعك للفوز بكل مباراة.تشبه الرياضة الحياة إلّا أن الحياة ليست لعبة. لا يوجد خيار "حاول مرة أخرى" بالحياة الواقعية.

لم أمت بسبب صاروخ قادم من فوق رأسي لكنني قد أموت الآن بسبب لغم من تحت أقدامي. هل ينعونني شهيدًا وأنا الذي حاولت الهروب من هنا؟!

أرى الأمر غريبًا أن الحياة والموت هما أكثر الأمور تناقضًا لكنهما متلازمان! لا يوجد حياة دون موت ولن يكون هناك موت إن لم يكن هناك حياة بالمرتبة الأولى.

بدأت الشمس بالميلان نحو الغرب لكنها ما زالت حارقة.

نجاح

نحن لسنا شَعْبًا بل شُعَبًا احترفت النوم واهتوت إلقاء اللوم فأصبحت التتانة عنوانًا لنا، لكن ليس من رائحة البصل أو من كثرة الثوم، بل بسبب أخلاق ورذائل من هم ليسوا بقوم. أفراد تستيقظ كل صباح يسعون جاهدين لتحقيق النجاح. وبعد عناء وكفاح، كان نجاحهم لا يتعدى زوجة للنكاح.

فرس في زمن الحمير

يمتلك حمادة مزرعة دواجن كبيرة وكان يذهب إليها كل صباح – حتى فترة قريبة – بواسطة حماره، حقيقة، كان يستيقظ حمادة مبكرًا للذهاب إلى مزرعته كي يلحق بالسوق على هذا الحمار طوال ما يقارب الثلاثة عقود، وكان دومًا يصل إلى المزرعة متأخرًا – هذا إن وصل – بسبب بطئ الحمار وكثرة وقفاته وعثراته، ولكن بالفترة الأخيرة زادت عثرات هذا الحمار كثيرًا وتسبب بسقوط حمادة أكثر من مرة، وبعد كل هذا الوقت، فطن حمادة أنه يمكنه الاستغناء عن "خدمات" هذا الحمار.

فعلًا، حبس حمادة الحمار في زريبة قريبة من المزرعة التي كان يحرسها مجموعة من الكلاب. لكن بعد هذا لم يتوقف نباح الكلاب ونهيق الحمار بجانب المزرعة، رغم أن الكلاب لم تكن تنبح سابقًا، لكن على ما يبدو كان الحمار كالشرارة التي اشعلت فتيل نباح الكلاب.

كان على حمادة أن يجد وسيلة غير الحمار للذهاب إلى المزرعة وهذا ما فعله حقًا، فهو اختار فرسًا ليكون وسيلته للذهاب إلى المزرعة ومن ثم السوق. كان الفرس خير مثال على الفرس العربي الأصيل.

أصبح حمادة يذهب لمزرعة الدواجن مبكرًا وأصبح يلحق بالسوق كل يوم بفضل سرعة وتحمل فرسه، ورغم أن بعض الكلاب التي تحرس المزرعة قد أفلتت على المزرعة ونهشت الكثير من الصيصان إلّا أن حمادة لم يكترث لتجاوزات الكلاب هذه، فهو الآن أصبح يبيع ويشتري على عكس الأيام السابقة. لكن الفرس لم يشارك صاحبه روحه التجاهلية تجاه الكلاب فكان دومًا يصهل بحدة الزئير على هذه الكلاب لجعلها تبتعد عن الدواجن، وكان يصهل أيضًا على الحمار الذي لا يفعل شيئًا سوى النهيق وهذا لم يعجب حمادة، ليس نهيق الحمار أو نباح وتعديات الكلاب بل صهيل الفرس.

ازدادت تعديات حرّاس المزرعة على المزرعة كل يوم فلم يكن بوسع الفرس سوى أن يركض نحو الكلاب لإبعادهم عن باقي

صيصان المزرعة، لكن خلال ركضة الإنقاذ هذه كان حمادة قد سقط عن ظهر الفرس، ليس لأن الفرس غدر بصاحبه بل لأن حمادة لم يكن فارسًا أهلًا لهذا الفرس فحمادة اعتاد على حماره القديم المتهالك. وبالفعل، عاد حمادة لحماره القديم بعد أقل من عام على وجود الفرس تحت خدمة وطاعة حمادة. وربما كان هذا هو الخيار الأفضل لأنه على ما يبدو أن عقل حمادة يتماشى مع عقل الحمار.

في اليوم الأول لحمادة مع حماره القديم الجديد، وصل إلى المزرعة متأخرًا جدًا ولم يكن هناك مجال للحاق بالسوق، لكن هذه لم تكن المشكلة الأكبر بل كانت المشكلة بأن الكلاب كانت قد قضت على مزرعة الدواجن كلها ووقتها فقط عاتب حمادة نفسه معترفًا "ما أغباني!! كان يجب علي أن أفعل هذا منذ زمن طويل. كان علي أن أسمم الدواجن فتموت الكلاب، وبعدها.. سأجلب دواجن جديدة.. وكلابًا جديدة أيضًا."

سـوء تـفـاهـم

في يوم من الأيام كنت عند أحد معارفي فإذ بهاتفه النقال يرن ليرد عليه بصوت رفيع ومهذب جدًا، وقد كنت قادرًا على معرفة أن المتحدث مع الشاب كان فتاة; فالصوت كان مسموعًا بالنسبة لي. عندما سمعت صوت الفتاة نظرت سريعًا إلى يد الشاب لأرى خاتم خِطبة في اصبعه. بعدما انتهى الشاب من حديثه على الهاتف باشرت حديثي:

- من الجيد أن لك خطيبة تتحدث معها..

وحتى قبل أن أبارك له رن هاتفه مرة أخرى ليرد بالصوت المهذب ذاته.. مع فتاة أيضًا. وبعد دقائق عدة من الحديث أنهى الشاب الاتصال فقلت له:

- مبارك الخطوبة.. ويبدو أن خطيبتك تحبك جدًا; فهي لا تنفك تتصل بك!
- ما الذي يدفعك لقول هذا؟!

سأل متعجبًا قبل أن يكمل:

- هذه أول مرة تتصل بي اليوم!

فسألته وأمري كله حيرة:

- لكن من الذي اتصل بك قبل قليل؟!

ظهرت ملامح التعجب على وجه الشاب قبل أن يقول لي:

- ما أمرك؟! ألم تقل لي أنني محظوظ لوجود حبيبة أتكلم معها؟!
- لقد قلت لك "خطيبة"

صححت كلام الشاب.

- أووه.. لقد سمعتها "حبيبة"

لم أرد عليه لكنني أدركت بأنه بحاجة إلى فحص سمع عاجل.

تباشير

انتهيت من كتابة حل آخر مسألة على اللوح مع انطلاق جرس الحصة السابعة والأخيرة. نفخت على يدي لأزيل ما أقدر من أثر الطباشير عنها وحملت حقيبتي على كتفي وخرجت. احتجّ الطلبة على حاجتهم للبقاء لوقت أطول في الصف لكتابة حل المسألة ورافقني صوت تذمرهم إلى الرواق. اجتمع صراخ من بقو بالصف مع صراخ من انتهى من دوامه من الطلبة وكان وراء كل صراخ سبب يختلف عن الآخر لكنهما معًا شكلا لغطًا لم أستطع حله.

سجلت ساعة خروجي وتوجهت إلى منزلي الذي لا يبعد أكثر من مئتي متر وحاجز عسكري عن المدرسة. كان قد تعرض الحاجز إلى هجوم صغير من الطلبة الذين رمو حجارة على مشارفه وذلك أمر ليس بالغريب.

كان معظم من في طابور الحاجز العسكري من الطلبة، طلبتي. وعندما كان يسألهم الجندي عن بطاقة الهوية كانوا يجيبونه بـ"كتان" (صغير) فيشير لهم بيده بأنه يمكنهم العبور إلى الجهة الأخرى إلّا من يشتبه بتورطهم برمي الحجارة. يتفقد ملامحهم ويتفرس أيديهم بحثاً عن آثار حجارة.

لم يكن أي طالب قد صلب عندما جاء دوري للمسائلة قبل العبور من خلال الحاجز. وقفت مقابل الجندي ولا يفصلنا سوى حجر كبير مكعب الشكل.

- خَويّة!

أمر الجندي.

أخرجت الهوية من الجيب القابع على مؤخرتي وأريته اياها. نظر الجندي إلى صورتي في الهوية ونظر إلي أكثر من مرة بنظرات ملأها الشك.

- افتخ إيديك!

أمرني مرة أخرى.

فتحت يدي له فرأى خيوط يدي اليمنى بيضاء بسبب الطباشير إلّا أنه ظنها آثار حجارة.

- وكّف مخلّك!!

صرخ بي.

- بتلاتخ خجار؟!

سألني مستنكرًا ذلك الفعل.

- طباشير! أنا أستاذ في المدرسة القريبة.

أجبته ببرود.

نظر الجندي إلى حقيبتي فاقتنع بكلامي ثم أشار بيده إلى الباب المعدني الدوار الفاصل بين الحاجز والجهة الأخرى.

حينها، شعرت بأقصى سعادة يمكن أن أشعر بها. وبالوقت نفسه، شعرت بتعاسة لم يبدو أن لها مفرجًا. لم يطغ شعور على آخر لكن الاثنان كانا موجودين باللحظة ذاتها. الجسم الذي لا يمكن إيقافه والجسم الذي لا يمكن تحريكه تحولا إلى مشاعر

داخلي. فرحة لأن الجندي لم يدرك أن طبشورة واحدة أخطر من ألف حجر، وعزاء لأننا أيضًا لم ندرك تلك الحقيقة.

كنز

لم يكن هناك شيء لفعله بالنسبة لمحمد. كان جالسًا على أريكة مقابل التلفاز يقلب القنوات بواسطة جهاز التحكم عن بعد لكن لم يعجبه أي من البرامج التي كانت معروضة. كانت زوجته عند أمها مع الأبناء إلّا الولد البكر. فلم يكن هناك أحد ليطهو الطعام له. تحسس محمد جيوبه فلم يجد شيئًا، فأدخل يداه ليتأكد لكنه لم يجد شيئًا كذلك فتأفف حسرة.

بقيت عيناه على التلفاز لكنهما لم تكن متابعتين لما داخل الشاشة. وفي لحظة وحي سمائي، ارتفع نظر محمد سانتيمترات قليلة فوق خزانة التلفاز فوجد كتابًا. لقد كان القرآن الكريم فابتسم محمد ونظر إلى السماء بامتنان.

قام محمد نحو الخزانة ورفع يده نحو المصحف وحمله. كان المصحف مغطى بالغبار بشكل كامل، فتحسس محمد الغلاف ليزيل الغبار عنه قبل أن يزيل ما تبقى من الغبار بنفخة هواء

لطيفة. عاد غلاف القرآن نظيفًا ففتحه محمد من المنتصف ليخرج ورقة نقدية كان قد نسي أن زوجته تضع المال هناك أحيانًا.

أغلق محمد المصحف وأعاده إلى مكانه بينما كان يصرخ على ابنه، "يا ولد!! تعال لتذهب إلى البقالة لتشتري لي علبة سجائر!!"

قصة قصيرة ذاتية لطفل أفريقي

ماضـي المسـتقبل

لم يكن ذلك اليوم مثل باقي الأيام بالنسبة لأحد الشبان فهو لم يكن يومًا مليئًا بالفراغ. بداية ذلك اليوم كانت مثل كل يوم، فهو بكل صباح يتنظر الحافلة التي تقله إلى مكان عمله. لم تكن الحافلة مخصصة لعمله لكنه أحب الذهاب إليه بتلك الحافلة لعشقه حكايات السائق كبير السن. دائمًا ما يجلس الشاب على الكرسي الأقرب للباب والأنسب لسماع حكايات السائق. في ذلك اليوم اختلف أمر ما فعندما فتح السائق الباب له صعد مبتسمًا كعادته. لكن المختلف كان وجود كهل نائم على الكرسي. كهل بدا كأنه يحلم بماض لم يكتب له. نظر الشاب إلى السائق واحتج. هز السائق كتفيه ثم انطلق بالحافلة.

بحث الشاب عن كرسي شاغر بينما كانت الحافلة تسير. استعان الشاب بالقضبان ومساند الكراسي ليحافظ على توازنه. كان طريقه طويل فعلى كل كرسي تقريبًا كان هناك شخص يتبادل معه السلام والسؤال عن الأحوال. كان محبوبًا منذ مجيئه إلى

المدينة بعد خروجه من الأسر. هي ليست مدينته بالمولد ولا بالنشأة لكنه لم يفتقد العطف بها.

كان الكرسي ما قبل الأخير على يمينه شاغرًا فأراد أن يجلس هناك دون النظر إلى يساره. لكن على الكرسي ما قبل الأخير على يساره كانت تجلس فتاة وبجانبها امرأة تحمل رضيعها بين يديها. كانت يدا الفتاة متشبثة بقوة حول ثلاثة كتب جامعية. تقيأ الرضيع على الفتاة وبردة فعل قامت عن كرسيها بينما كان الشاب يهم بالقعود على الكرسي الذي على يمينه ولكن مع وقوف الفتاة المسرع ارتطم بها، وارتطم الحب به. هو أسير محور لكن لا شيء أسره بشدة أكبر مما أسرته عيناها. كانت الشمس متئكة على الأفق أول طلوعها وكانت قادمة من خلف الفتاة فتحدد إطار وجهها بخيط ذهبي وكانت عيناها في منتصف اللوحة.

جلست الفتاة وجلس هو لكن قلبيهما بقيا على رقصهما. كانت تدرس الكيمياء وشاهد كتبها. كانت الكيمياء من هواياته التي أبدع بها لكنه لم يخبرها بذلك. كان يود الاعتذار منها لأنه

اصطدم بها لكنه لم يفعل ذلك أيضًا. أما هي، فمثلت بأنها تلاعب الطفل وأبعدت ناظريها عنه لكنها لم تستطع إبعاد تفكيرها. كان هناك القليل من القيء عند قدمي الفتاة ولم يكن معها ومع أم الرضيع محارم ورقية كافية لتنظيفه لكن كان معه الكثير لكنه لم يساعدهما، هو حتى لو يعرض المساعدة على الأقل.

وصلت الحافلة جامعة الفتاة أبكر بكثير من وقت أول محاضرة فقامت ونظرها على كتبها. لم يلتفت الشاب نحو الفتاة أول قيامها لكنه نظر إليها عند نزولها درجات الحافلة ليفتح لها الباب وخرجت وأقفل بعدها الباب مصدرًا صوتًا عاليًا ليستيقظ الشاب. كان على كرسيه الذي اعتاد الجلوس عليه، أقرب كرسي إلى الباب. وقبل أن يفتح السائق كبير السن الباب، لاحظ الشاب من خلال نوافذ الباب ثلاثة كتب كيمياء مع الراكب الذي كان على وشك الصعود إلى الحافلة. فتح الباب وصعد الراكب ورافقه نور جاء معه من الخارج.

مفتاح وباب

عندما غادر جدّي بيته القديم قبل ٤٨ سنة أخذ معه مفتاح البيت. وبعد حياة طويلة خارج البيت، عاد جدي ومعه المفتاح. حاول فتح بيته القديم بالمفتاح الذي أخذه قبل ٤٨ سنة لكن الباب لم يفتح. حاول مرارًا دون فائدة، لكنه أوقف المحاولة عندما رأى أن الباب قد تغير.

يد بيد

كانت الرايات الخضراء والصفراء والحمراء والسوداء من حولي. كانت مظاهرة كبيرة ضد الاحتلال فخرج الآلاف من المساجد بعد صلاة الجمعة للتظاهر وكنت أنا في الصفوف الأولى، وكان من حولي الكثير من الأسماء المؤثرة في مختلف الفصائل الوطنية. لم نتوقف عن الهتاف فكادت تخرج تفاحة آدم من مكانها.

بدأت المظاهرة سلمية لكن الحال تغير عندما توقفت بضع مركبات عسكرية للعدو أمامنا، وجاءت شاحنة كبيرة محملة بالمياه العادمة فبدأت بضخها علينا، فبدأنا بدورنا بضرب الحجارة على تلك المركبات المحصنة جيدًا. شارك الكثير من الشبان والأشخاص الذين أعرفهم في ضرب الحجارة التي تساقطت أمام المركبات المدرعة كتساقط الذباب أمام قوة المبيد الحشري.

أخرج جندي سلاحه لإطلاق الكريات المعدنية المغلفة بالمطاط، فبدأت الصفوف الأولى بالهروب نحو الخلف فتعرقل الكثير منهم. وأنا أيضًا تعرقلت كذلك فوقعت على الأرض. كان وجهي نحو الأسفلت وظهري إلى السماء. أمسكتني يد من عضدي بقوة ورفعتني عن الأرض فإذ به جندي ومعه جندي آخر. ضرباني الجنديان على وجهي وعلى معدتي أكثر من مرة بأكعاب أسلحتهم. لم يتوقفا عن ضربي، بقيا يركلانني ويلكمانني أثناء جرهما لي نحو جِيب عسكري.

احتجت لثوان قبل أن تتضح الرؤية لحد سمح لي برؤية من كان بالجِيب. لقد كان الضابط المسؤول الذي بدأ الكلام:

- أنت تعلم أن هناك قرارًا صدر بحق من يرمون الحجارة علينا.. خمسة وثلاثون سنة بالسجن، أليس كذلك؟
- أعلم ذلك!
- ولمَ أنت هنا الآن؟

اكتفيت بهز أكتافي.

- أعتقد بأنك تعرف إن حاكمناهم ولم نحاكمك، سيشك الجميع بك، وأنت لا تريد ذلك، ولكن باليد الأخرى، سيُظهر عدم محاكمة الآخرين حكومتنا بمظهر البلهاء، ونحن لا نريد ذلك، أليس كذلك؟

سألني الضابط المسؤول.

لم يكن هناك إجابة تصب بمصلحتي.

عاصمة أبدية

عندما أقول أنني أحب هواء بلدي فأنا لا أقصد رائحة قنابل الغاز المسيل للدموع، لكنني مجبر على استنشاقه في كثير من الأيام; فهو أصبح جزءً لا يتجزأ من سمائنا. وهناك على الأرض، كانت الإطارات المشتعلة التي كانت تطرز في الهواء ثوبًا مصنوعًا من خيوط سوداء سميكة.

كدت أختنق عندما كنت موجودًا في موقع الاشتباكات بين بعض الشبان والجيش. رغم سنواتي الستين، هرولت مبتعدًا وأنا أكمم أنفي وفمي بواسطة يدي قبل أن ألمح اللون الأصفر لسيارة عمومية. ركبت في المقعد الخلفي دون أن اسأل أين يتجه; فهدفي كان الابتعاد عن منطقة المواجهات وليس الذهاب إلى مكان معين.

- كيف الوضع يا حاج؟!

سألني سائق السيارة لكنني لم أستطع إجابته لعدم وجود أكسجين نقي في رئتي فوجّه السؤال إلى الراكب الذي كان جالسًا في المقعد المجاور له.

- هؤلاء الشبان! لعنهم الله!!

رد الراكب غاضبًا.

- خير؟!

سأل السائق مجددًا.

- إنهم السبب في توقف عملنا! أنت محظوظ جدًا!
- لماذا أنا محظوظ؟!
- لأنك تسوق هذه السيارة.. يمكنك الابتعاد عن مناطق المواجهات متى أردت!
- ربما!
- هل العمل جيد في هذه الأوقات؟!
- نوعًا ما!
- هل هو أفضل من السنة الفائتة؟

- لا أعلم.. كنت أعمل في اسرائيل السنة الماضية
- حقًا؟! أين في اسرائيل؟
- القدس

تسـاؤل

هل تذوق الدمع هي أفضل طريقة لمعرفة إن كانت الدموع دموع حزن أم فرح؟ سيكون سيئًا إن كانت كذلك; فأنا لا أستطيع تذوق أي شيء.. حرفيًا. وإن كنت أريد معرفة ما سبب نزول الدموع بطريقة أخرى سيجب علي التحاور لمعرفة ذلك، وأنا لست من النوع المتكلم أيضًا.. حرفيًا. من الغريب جدًا احتياجك لأي أمر عندما تفتقده.. فما بالك بشخص؟!

لنعد إلى الموضوع الأساسي: هل هي دموع حزن أم فرح؟ كان بودّي أن أمسك مؤخر رأسها وهي تبكي لأقربه من لساني وألعق الدمع كي أجد الإجابة. لكن كما سبق وقلت، أنا لا أستطيع تذوق شيء، ولأزيد الطين بلة، لا أستطيع الإمساك بشيء ملموس أيضًا. ومحاولة أن أكون فطنًا أو حساسًا لمعرفة ما تشعر هي به ليس خيارًا، فأنا ليس هي. بل أنا هو وهي هي، وحسب نظرتي لا يمكن لهو أن يشعر كما تشعر هي، هذا إن كان

يشعر.. أو شعر في وقت ما. ولا أتكلم هنا عن شعوره للملموسات. أوه.. أتكلم! أنا أتكلم.. لكن مع نفسي. على الأقل أنا أستمع لنفسي!

تبًا!! لنعد إلى الموضوع الأساسي! لكن! ماذا لو كانت دموع فرح؟ هل سأفرح لأنها فرحة ومسرورة.. جدًا! فلا أحد يبكي فرحًا بسبب شيء بسيط! هل سأفرح حقًا لأنها مسرورة.. ربما بسبب بعدي عنها؟! لكن ماذا لو كانت حقًا متألمة وتبكي وجعًا وحرقة؟ هل سأسرّ لأنها تفتقدني وأنني كنت يومًا ما ذا أهمية؟ أم أنني سأحزن لحزنها؟ هذا إن كانت حزينة، فأنا حقًا لا أعلم إن كانت تبكي فرحًا أم حزنًا.

هل ألاحقها لأعرف؟ ألم تعد محرمة علي؟ ألم يفرقنا الموت؟ أحدنا على الأقل! لم كل هذه الأسئلة؟ ولم أسأل نفسي متوقعًا إجابة منها؟! أليست المعرفة هي التي تجيب؟ هل يمكن أن أتعلم أكثر؟ الآن! ألم يفت الأوان للتعلم؟!

تبًا! تبًا! لمَ أفقد تركيزي بسرعة؟! السؤال الأساسي: لمَ تبكي؟ كلا.. كلا! ليس هذا السؤال! لكن، لو علمت لما تبكي لربما عرفت

إن كانت دموعها دموع فرح أم حزن! لكن، ما الذي يضمن لي بأنني لو أجبت على هذا السؤال لن أصرّ على إجابة الأسئلة الأخرى؟

إنها تعود إلى المطبخ الآن! ربما سأجد الإجـ... يا للعنة! ماذا لو كانت تقطع البصل؟ ماذا سأفعل؟ اااه.. سؤال ملعون آخر! من أين تأتي هذه الأسئلة؟ هل ستنتهي؟! أعتقد ذلك، لكن كيف؟

اااه.. لنعد إلى السؤال الأساسي! لكن لماذا أستخدم صيغة الجمع؟ أنا أتكلم مع نفسي! هل نفسي هي شخصيات متعددة؟ أكانت كل شخصية مرتبطة بزمن معين ومحدد؟ وربما بمكان وأشخاص؟ لكن.. هل دموعها دموع حزن أم فرح؟ أم هل تقطع البصل؟ كلا.. أنا لن أدخل ذلك المطبخ; فلو دخلت سأعـ... أنا لا أريد! لا أريد!! لكن هل أحتاج؟! هل المعرفة حاجة؟ ربما سيقتلني ذلك! لا، لا.. لكن.. ربما، ربما قتلني بالفعل! هل حصل ذلك؟ ماذا حصل؟! كيف جئت إلى هنا؟! كيف شكلي؟! مظهري؟! هل ذلك أنا؟ الذي هناك.. على السرير! هل هو أحد شخصياتي؟ كلا، ها هي تخرج من المطبخ. هي تجلب له البصل! هناك بصل

على صينية الفطور! أنا لم أحب البصل! هل يتكلم؟ هل تبتسم؟! هل.. هل أنا في المنزل الصحيح؟! نعم، أنا كذلك; فأنا عرفت أين المطبخ! لكن لمَ سألت نفسي إن كنت متأكدًا؟! هل ماتت الذكريات أيضًا؟ بالنسبة لي.. أم لها؟! أم الاثنين معًا؟ لست متأكدًا من شيء! بلى، متأكد من أمرين: الأول، أنني لست متأكدًا من الكثير من الأمور، والثاني، أنا لا أحب البصل.. لا.. لا أحبه إطلاقًا.. حقيقة، لطالما كرهته!

إطار

كان رئيس الحكومة ووزير الداخلية يشاهدان الأخبار في القصر الرئاسي. (يمكنك إضافة أو إزالة "سيادة" حسب رغبتك أو رعبك) وكانت تغطية المظاهرات المناهضة للحكم هي الشغل الشاغل للقنوات الإخبارية.

"مظاهرات في كل المحافظات مناهضة للرئيس." كان عنوان حلقة برنامج إخباري حواري على إحدى القنوات الحكومية.

- أرأيت؟!

سأل الرئيسُ وزير الداخلية.

- نعم، ربما يجب علينا استخدام الرصاص الحي!
- لم أقصد المتظاهرين، بل عنوان الحلقة.
- ما به؟!
- لم يقولوا "سيادة الرئيس" اكتفوا بـ"رئيس" فقط. يظنون أنني لقب دون سيادة فعلية.

- سنفصل المحرر!

وبينما كان الاثنان يتناقشان، دخل عليهما وزير الإعلام غاضبًا وبدأ بالصياح.

- تبًا للقنوات! إنهم ينشرون أخبارًا متناقضة! كان يجب أن نعين كاتب أخبار واحد فقط!

كانت تلك المرة الأولى التي يصرخ فيها أحد بحضرة الرئيس لكن الأخير لم يلق بالًا لفعل وزير الإعلام.

- إننا بمأزق!

صرّح وزير الداخلية وهو مغطٍ وجهه بيديه.

- هل تقصد الحكومة أم الحكومة والشعب؟

استفسر وزير الإعلام.

بعدما انتهى وزير الإعلام من كلامه دخل عليهم خادم يحمل صينية عليها القهوة. أمره الرئيس بأن يبعد الصينية وأن يقف مكانه ثم أومأ للوزيرين بالاقتراب منه بعدما قام من كرسيه.

اقتربا منه كثيرًا حتى بانت إشارات التعجب على وجهيهما. تعجب الخادم الذي كان واقفًا على بعد مترين كذلك.

- هل تعلمان قصة الرجل الذي كان يعيش بـ"مأزق" مع حيواناته؟

سأل الرئيس.

- لا!
- لا!

أجاب كلا الوزيران.

- حسنًا. لنقل أن اسم ذلك الرجل سليم. كان سليم يعيش لوحده بغرفة صغيرة جدًا وكان يملك زريبة وضع فيها دجاجة وخروفًا وحمارًا. اشتكى سليم من ضيق غرفته كثيرًا ولحل هذه المشكلة، ذهب طلبًا للمساعدة من مختار البلدة. شرح سليم مشكلته للمختار فاقترح الأخير على سليم بأن يُدخل الدجاجة إلى الغرفة عنده وأن يرجع إلى المختار بعد أسبوع ويخبره كيف أصبحت حياته...

طلب الرئيس من وزير الإعلام الالتصاق بالخادم.

- ... استغرب سليم من تلك النصيحة إلّا أنه عمل بها.
رجع سليم إلى المختار بعد أسبوع وأخبره بأن المعيشة أمست أكثر ضيقًا عليه بعدما أدخل الدجاجة عنده، فأخبره المختار بأن عليه إدخال الخروف أيضًا...

طلب الرئيس من وزير الداخلية الذهاب والوقوف ملاصقًا لوزير الإعلام والخادم، ففعل.

- ... بعد أسبوع، عاد سليم إلى المختار واشتكى له بأن الحياة أمست أصعب وأكثر ضيقًا فما كان من المختار إلّا أن اقترح على سليم إدخال الحمار عنده...

كان يتحدث الرئيس وهو يخطو نحو الوزيرين والخادم.

- ... استغرب سليم من اقتراح المختار إلّا أنه عمل به.
عندما عاد بعد أسبوع للمختار اعترف بأنه لم يعد يستطيع العيش بذلك الضيق بعد ذلك فأخبره المختار

بأن يُخرج الحيوانات جميعها وأن يعود إليه بعد أسبوع ليخبره كيف أصبحت معيشته...

ابتعد الرئيس عن الخادم ومعه الوزيرين فزفر الخادم مرتاحًا.

- ... عاد الرجل إلى المختار ودون أن يسأل الأخير، شكر الرجل المختار وقبّل يده عرفانًا بالجميل وأخبره بأنه يشعر براحة كبيرة بعدما أخرج الحيوانات.

انتهى الرئيس من حكاية القصة.

- لكننا نحن السيادة! نحن الحكومة! نحن المختار!

صرخ وزير الداخلية غاضبًا.

- إن كنا نحن المختار وسليم هو الشعب، فمن يكون الحمار؟!

سأل الرئيس مستنكرًا لكلام وزير الداخلية.

من المعروف أن خط الأطباء بشع جدًا، والحقيقة أن خطهم يضرب به المثل عندما يتعلق الأمر ببشاعة الخط. لكن هذا الخط

على بشاعته إلّا أنه يدل على علاج وهذا يجعله أفضل من الخط الجميل والذي لا يعني شيئًا أو لا يدل على أمر ذي قيمة.

الجمالية والأهمية.

يمكنك أن تشرب حساء عدس بارد بزبدية مصنوعة من الذهب أو يمكنك أكل كافيار موجود في صحن خشبي. لن تجعل الزبدية الذهبية العدس البارد ألذ، تمامًا كما لا تستطيع مستحضرات التجميل أن تجعل امرأة عاقرًا تنجب أطفالًا.

هناك من هم الصور وهناك من لا يزيدون عن كونهم.. إطار.

موت

كان الظلام قد بدأ بالحلول. السماء زرقاء داكنة. والشمس ذهبت لترتاح بسريرها بعد يوم مضنٍ. رغم أنها عملاقة إلّا أنها تتعب. الجميع بحاجة إلى الراحة، وأنا من ضمنهم. أريد أن أرتاح من كوني أنا، ومن حقيقة قبوعي هنا. ولكن الأهم من ذلك كان أن أرتاح من ألم أسناني.

بحثت عن المحلول الملحي في كل مكان بالخيمة لكنني لم أجده رغم قلة الأماكن التي يمكن أن يكون بها.

كانت أمي مستلقية على جانبها الأيمن وظهرها لي. كنت متيقنًا أن أخي الصغير كان ملتصقًا بصدرها علّه يجد حليبًا يعينه على البقاء.

كنت سأصرخ من ألم أسناني فلم أجد خيارًا آخر غير إيقاظ أمي وسؤالها عن مكان المحلول. اقتربت منها. لم يكن يغطيها شيء سوى فستانها الذي كان أزرقًا في يوم من الأيام. هززت كتفها

الأيسر مرتين لكنها لم تجب. التفتت إلى الجهة المقابلة لأواجهها. للغرابة لم يكن أخي يحاول أن يمتص الحليب من ثدي أمي! كان بعيدًا قليلًا عنها.

كنت قلقًا لعدم استجابة أمي لي فوضعت إبهامي على رسغها الأيسر واستشعرت النبض الذي كان من المفترض أن يكون هناك. ذهبت أمي لترتاح.

لهنيهة نسيت ألم أسناني وتحولت أفكاري نحو أخي الصغير.

كيف سأعينه؟!

لحق نظري بأفكاري تجاه أخي. كان حول فمه مبتلًا، لكن السائل لم يكن أبيضًا. لم أتسائل كثيرًا عن ماهية السائل عندما وجدت علبة المحلول الملحي بجانبه. كان يرضع ملحًا، وكان ميتًا.

خرجت من الخيمة وكان الظلام قد حل بالكامل.

حياة

كان أحمد على موعد مع خطيبته التي تعمل ممرضة بمشفى خاص. ذهب أحمد إليها قبل أن تنتهي من فترة عملها فاضطر إلى انتظارها في الكافيتيريا الخاصة بالمشفى.

كانت الكافيتيريا أشبه بمطعم خمس نجوم أو على الأقل، أربع. لم تحوِ الكافيتيريا سوى على عشر طاولات في صفّين متقابلين يبعدان نحو سبعة أمتار عن بعضهما وبينهما نافورة رخامية صغيرة. أحد الصفين كان على جهة باب كبير يفضي إلى خارج المشفى، والصفّ الآخر كان مطلًا على أحد جدران الكافيتيريا. كان الجدار عبارة عن حوض أسماك كبير. حوالي ثلاثة مترات فصلت بين كل طاولة والأخرى في الصفّ الواحد وكان هناك كرسيان فقط عند كل طاولة.

جلس أحمد على طاولة تقع على طرف الصفّ المطلّ على الجدار وظلّ ينظر إلى الناس من حوله. طار نظره في سماء الكافيتيريا

قبل أن يهبط على رجل وامرأة بدا أنهما متزوجان حديثاً يجلسان على طاولة تتوسط الصفّ الآخر من صفّي الطاولات. رغم المسافة غير القريبة إلّا أن أحمد كان قادرًا على سماع آثار لضحكاتهما فتساءل في نفسه:

- كيف يضحكان؟ كيف يجرؤان على الضحك؟ في هذا الطابق ناس يضحكون وفي الأعلى ناس يحتضرون! هل سيضحكان لو واجه أحدهما الموت بنفسه؟ لكن بالتأكيد هما هنا لزيارة مريض.. لا.. لا.. على الأغلب هما هنا لأن قريبًا أو صديقًا لهما رُزق بمولود جديد.. نعم هذا هو سبب مجيئهما.. ولهذا هما يضحكان.. احتفالًا بالمولود الجديد..

لم يتوقف دماغ أحمد عن تساؤلاته وتكهناته حول ذلك الزوج إلّا مع وقوف الرجل الذي كان جالسًا قبالة المرأة قبل أن يحمل فاتورة الحساب بيده وذهب. غاب لدقيقة ثم رجع إلى الطاولة.. لم يجلس.. لكن المرأة لم تقم. اقترب الرجل منها وانحنى نحوها.. قبلة شفّافة على جبينها قبل أن يقف خلف كرسيها..

المرأة لم تكن قد قامت بعد ويبدو أنها لن تقوم بعد ذلك اليوم.
حلّ الرجل مكابح كرسي العجلات الذي كانت تجلس المرأة عليه وبدأ بدفع الكرسي برفق نحو الباب الكبير الذي احتضنهما بنوره ليختفيا عن ناظري أحمد.

كان لا يزال هناك الكثير من الوقت حتّى انتهاء عمل خطيبته.
ظلّ أحمد على كرسيه ذي الأربع أرجل ومتئكًا على الطاولة ولم يعدل من جلسته إلّا عندما جاءه النادل ليسأله:

- مشروبك سيدي؟
- ممم.. قهوة.. حلوة.. قهوة حلوة

حنى الشاب رأسه قليلًا احترامًا لأحمد ولم تكن الابتسامة اللطيفة قد غابت عن وجهه قبل أن يغيب هو لمتابعة عمله.

كان عقل أحمد على وشك أن يعمل على تفسير الابتسامة التي اعتلت وجه النادل لكن وقبل أن يبدأ بتفسير ضحكات وابتسامات الآخرين، ابتسم هو حين رأى خطيبته واقفة على الدرجة الثالثة من سلّم الدرج الذي ينزل إلى الكافيتيريا ملتفتة

يميناً وشمالًا باحثة عنه. كانت هي تبحث وكان هو يبتسم لكن كان عليه البحث بدوره ايضًا، كان عليه البحث عن الأسباب التي جعلته يبتسم وهو في كافيتيريا المشفى.. ناس يموتون.. لكنه كان يبتسم من قلبه. هل أصبح غير مكترث بالآخرين؟ غير مكترث بالوفيات والأمراض؟ وهو قبل ذلك بدقائق اتّهم الأشخاص الذين يضحكون بالمشفى بأنهم لا إنسانيين؟ أم أنه فقط وجد أن هناك أمورًا تقهر المرض وتقتل الموت؟

زيت زيتون

رغم أن سكان القرية جميعهم يمتلكون أشجار زيتون إلا أن زوجي كان يهدي كل ضيف جرة زيت. وعندما كنت أسكب بعض الزيت في جرة سمعت صراخًا جاء من المنازل البعيدة في القرية. ذهبت والجرة بين يدي وكان الصراخ يقترب أكثر، وعندما رأيت الأغراب يقتربون سقطت جرة الزيت وانكسرت.

فريسة

"إنهم كلاب! أولاد كلاب! ينهشون الصيصان بلا رحمة! كل ليلة دون راحة.. يجب أن تقضو عليهم!!"

هكذا كانت أوامر صاحب مزرعة الدواجن التي كنت أنا وشاب آخر نعمل فيها. اقترحت بسرعة استخدام السم لتسميم الكلاب التي تقترب من المزرعة لكن الشاب الآخر كان لديه فكرة أخرى.

لقد كانت المزرعة منعزلة عن مناطق السكان وكبيرة تمتد على طول تسعة دكاكين كبيرة وتحتوي على حوالي عشرة آلاف صوص. يَنفق منها حوالي الألفين قبل أن يصبح البقية دجاجًا صالحًا للبيع التجاري. والكثير من هذه الصيصان تُقتل على أيدي الكلاب التي تنهشها بينما أنام أنا والعامل الآخر بعد يوم عمل طويل ومتعب.

- ماذا تقترح أنت؟

سألت الشاب الآخر.

- سترى الليلة! سترى الليلة!

وقبل ذهابنا إلى النوم على سطح المزرعة ليلتها، جلب الشاب عدة صيصان نافقة ووضعها أمام المزرعة بشكل مباشر أسفل حافة السطح فأدركت بسرعة ما كان ينوي فعله.

صعدنا إلى السطح وكان الشاب قد جلب معه عدة حجارة كبيرة وصفّها على الحافة المشرفة على الصيصان النافقة ينتظر الفريسة.

- لا يجب أن تقتلهم هكذا!

قلت للشاب دون أمل بتغيير رأيه.

كما توقعت، لم يقلق الشاب بما قلت وبقي ينتظر فريسته الأولى. تلك الفريسة اقتربت رويدًا رويدًا من الصيصان وكانت تبطئ أكثر فأكثر كلما اقتربت حتى وصلتها. لم تشرع الكلبة بأكل الصيصان بل حملت أحدهما بين فكيها وقبل أن نرى ماذا كانت ستفعل به رمى الشاب حجرًا كبيرًا عليها فسقط الصوص من فمها وسقطت هي على الأرض تعوي ألمًا. لقد كان عواؤها

الصوت الوحيد المسموع في تلك الأنحاء إلى حين مجيء صاحب المزرعة بسيارته والذي بدأ بالصراخ "توقفا! توقفا!" فور نزوله من سيارته. وبدأ الصراخ على الشاب حتى قبل صعوده إلى السطح الذي كنا نعتليه.

صرخ صاحب المزرعة مجددًا:

- توقف! توقف عن فعل هذا! انتظر حتى أجلب الكاميرا!

درع

- لقد عدتَ من الموت يا أبي!

قلت له بهدوء بعد عودته إلى المنزل.

- كلا، أنت من عاد من الموت.

لم أجادله بذلك. قال كلمته واقترب مني وربت على كتفي وقال:

- أحسنت!
- الابن سر أبيه!

توقعت منه الابتسام لكنه بقي باردًا كالثلج، وهو لاحظ أنني رأيت ذلك ليشرح الأمر:

- لا تقلق! لم تؤثر قمة إيفرست بي.. الأمر فقط بأنك نجحت.. على عكسي!

- لكن.. نجاح الابن من نجاح الأب، أليس كذلك؟!
- ألن تسأل عن فشلي؟
- كلا.. فهو وهم!

لم يردّ والدي علي واتجه رأسًا نحو مكتبه في الطابق العلوي ولحقت به محاولًا معرفة ما باله، خصوصًا بعد افتراضي بأنه سيكون سعيدًا لتسلقه أعلى قمة في العالم. ودون أن يدير وجهه نحوي سألني:

- أتظن بأنني أول من اختبر ابنه في العائلة؟

لم أجبه فهو أتبع سؤاله بالإجابة سريعًا:

- لا.. لا.. فأبي فعل ذلك معي!
- وهل هذا ما تدعوه فشلًا؟! ألم تنجح؟ ألم تحل.. اللغز، ربما؟!
- هههه.. لا أعلم!
- أنت.. لا تعلم!!

لم أعرف ما كان قصد أبي من قول ذلك; فلم أكن أستوعب لحظتها إمكانية معرفة الشخص من نجاحه أم عدمه. كنت أظن بأن النجاح هو النقطة "ب" والشخص يتحرك من النقطة "أ" للوصول إليه، لكن تبين لي بأن الأمر لم يكن كذلك تمامًا.

- ما الأمر؟! هل من مغامرة في الأفق؟

سألته بإلحاح.

ابتسم والدي قبل أن يجيب:

- فعلًا.. لقد عدتَ من الموت!

مرت لحظات من الصمت قبل أن يكمل كلامه:

- كيف تحمي نفسك؟!
- مَ؟
- لا أعلم! لكن.. لو قلت لك أن هناك درعًا ثمينًا.. ماذا سيكون؟

- هل هذا اختبار آخر؟
- قل أنه كذلك..
- ربما علينا أن نجد ما هو..
- وأين هو!

توجه والدي نحو مكتبه الخشبي وفتح أحد الجوارير وأخرج ورقة يميل لونها إلى البني المصفر. فابتسمت وقلت متحديًا نفسي:

- لغز قديم.. وصعب!
- لغز لم يستطع والدك حله!
- لكنك قلت أنك لا تعرف إن حللته أم لا!
- وهذا ليس حلًا..
- لكن.. كيف تحمي نفسك؟
- أتسألني السؤال ذاته؟
- أي سؤال؟!

- سؤال أبي لي.. والآن، ابني يسألني السؤال نفسه!

لم أعقب على كلامه. انتظرت قليلًا حتى فتح الورقة التي أخرجها من الجرار وأعطاني اياها لأقرأ ما كُتب عليها بخط اليد:

كيف تحمي نفسك؟

بالدرع الواقي. أعلم أنه يبدو كلامًا صبيانيًا لكنها الحقيقة.

أين هو؟

لن أقول لك أين هو; فأنت لا يمكنك قوله على الملأ ففيك أمر مخالف لهم.

لقد كانت إجابة السؤال الأول موجودة، الدرع الواقي. لكن كان علينا إيجاد إجابة السؤال الثاني، "أين هو؟"

- ما رأيك بهذا؟!

سألني والدي بعدما انتهيت من قراءة الورقة.

- فيك أمر مخالف عن الملأ.. وجدي.. والدك هو طبيب.. هذا سهل!

نظرت إلى وجه أبي لأرى علامات الترقب عليه لأكمل استنتاجي:

- مخالف لـ ملأ.. ألم، ووالدك طبيب لديه عيادة.. إلى أين تذهب عندما تشعر بالألم؟ إلى العيادة!

ابتسم والدي لما قلت فطمأنته:

- ألغازك أصعب من ألغاز والدك!
- ألم تكمل قراءة الورقة؟

سألني والدي لأرفعها مجددًا وأكمل الملحوظة تحت السؤالين:

حل هذا ولن تكون مجرد طالب

ابتسمت قليلًا قبل أن أقول لوالدي:

- إنه يتحداك.. كما تحديتني!
- الفرق بأن أحدنا نجح والآخر لم يفعل.

لم أرد أن أبدأ نقاش فشله من عدمه مجددًا فحاولت استثارة روح المغامرة لديه وأكدت:

- لم تنجح.. إلى الآن!
- إلى عيادة جدك؟!

هززت رأسي موافقًا وقلبي كله سرور لأنني – للمرة الأولى في حياتي – كنت قائدًا. فما بالك أن أكون قائدًا لشخص مثل والدي المغامر بطبعه؟!

ذهبنا معًا نحو عيادة جدي مشيًا على الأقدام. تلك العيادة المقفلة منذ سنين، فهي لم تُفتح إلا قليلًا بعد وفاة جدي.

وصلنا إلى هناك بعد عدة دقائق فقط. أخرج والدي سلسلة المفاتيح من جيبه، كان مفتاح العيادة الأقدم من بين المفاتيح العديدة في السلسلة.

لم يُصدر الباب صوتًا كما توقعت أن يفعل، بل انفتح بسلاسة كما لو كان الباب حديثًا.

سبقني أبي إلى داخل العيادة ولحقته ويدي على أنفي لتقيني رائحة الهواء الساكن. كانت العيادة فارغة إلا من إعلان توعوي معلق على الجدار المقابل للباب الرئيس. اقتربت من الإعلان وكان خرير ماء يعلو كلما اقتربت أكثر من الجدار.

- إنها عين الماء.. في الحديقة الخلفية!

شرح لي والدي بينما وصلت إلى مسافة تخولني قراءة الإعلان. كان إعلانًا إرشاديًا لكيفية الوقاية من إنفلونزا الطيور، وكان معظم ما كتب مهترئًا إلا أنني استطعت قراءة بعض الكلمات بوضوح...

.. سمّ بالله واذبح الطير، أو نظفه جيدًا مرة أخرى إن اشتريته مذبوحًا، وقم بغليه بماء على درجة حرارة أعلى من سبغين درجة مئوية...

نظرت إلى والدي وقلت له:

- سبغين.. يجب أن يكون الحرف الأوسط عينًا.. إنها العين.. بالخارج..

لم يتكلم والدي لنصف دقيقة قبل أن يقول بإيجاز:

- إن حللت مسألة رياضيات بسهولة تامة.. فنسبة أن تكون إجابتك خاطئة عالية جدًا..

لقد لمّح والدي إلى سهولة المرحلتين الأوليين وذلك، على عكس المفترض، لم يكن مطمئنًا لي.

فتح والدي الباب الخلفي للعيادة وخرج إلى الحديقة الخلفية دون أن ألمح شعوره بالفضول والإثارة الذي كان يعتريه بداية ذلك اليوم.

كانت تنبع العين من بين صخرتين كبيرتين وكان يسير الماء منحدرًا إلى الأسفل بشكل قوس بطنه باتجاهنا وتحيطه الزهور البرية من الجانبين ويختفي بين صخور تبعد عن المنبع قرابة الخمسة أمتار.

لم تكن عين الماء كبيرة جدًا ولم أتبين أين تصب حقًا لكنها كانت جميلة وباعثة للسكينة في نفسي.. على الأقل قبل أن يعكر قول والدي صفوها:

- هذا هو!
- الدرع؟
- نعم.. الماء!
- حقًا؟!
- أتجد غيره؟!

لم يكن هناك شيء غير عين الماء تلك لكنني لم أفهم كيف بإمكان الماء أن يكون درعًا لنا فاستفسرت من والدي:

- الماء؟! كيف ذلك؟
- والدي طبيب.. وكان ينصح الجميع بشرب الماء.. فالله جعل من الماء كل شيء حي..
- أقلت أنه كان ينصح الجميع بذلك؟!

أومئ والدي موافقًا. أكملت بعدها:

- إن كان ينصح الجميع بذلك.. لمَ اللغز؟!

نظر والدي نحوي قليلًا قبل ن ينظر مجددً إلى عين الماء ويقول:

- يجب أن نعلم.. أن يكون هناك نتيجة واضحة.. وليست معلقة..
- ألهذا لا تعرف إن نجحت أم لا؟
- أعتقد أن الوصف الأدق لحالتي.. أنني لم أنجز الحل..

نظرت إلى والدي لدقيقة وكانت تلك من المرات القليلة جدًا التي أراه فيه عاجزًا. جميع المرات الأخرى كانت متعلقة بوالدتي المتوفية.

لم أود أن يلحظ والدي تحديقي به فنظرت مسرعًا نحو الزهور أمام قدمي. انحنيت والتقطت زهرة صفراء وقربتها من أنفي لأشم عطرها.. لم يكن لديها عطر.

- ليس لها رائحة!

أكد لي والدي.

- لكن بالتأكيد لها فائدة!
- بالتأكيد.. فالله لا يترك ما يخلق للصدفة..

أحسست بنبرة النصح بصوته لكن خيبة أمله كانت واضحة جدًا. انحنى والدي أيضًا والتقط زهرة صفراء. قربها من أنفه ليشم عطرها غير الموجود قبل أن يقول بائسًا:

- التقاطي لهذه الزهرة آملًا بعطرها الزكي مثل مجيئي إلى هنا متوقعًا إيجاد الحل..

رمى والدي الزهرة إلى العين لتجرها المياه معها. لاحقت عيناه الزهرة حتى اختفائها بين الصخور نهاية القوس ثم التف والدي نحو الباب للمغادرة. نظرت لثوان إلى العين لأحاول رؤية ما لم نستطع رؤيته سابقًا. أدرت نفسي خائبًا مثل والدي ومشيت خطوتين قبل أن أدير رأسي لألقي نظرة أخيرة نحو عدوي.. لكنني وجدت حليفًا.

توقفت مكاني عندما لمحت الزهرة الصفراء تسير مع الماء قادمة من بين الصخرتين. التفت والدي إليّ بينما عدت لاقترب من العين وكانت الزهرة قد اختفت مجددًا بين الصخور. انتظرت لثوان أخرى لتعود الزهرة مرة أخرى. اقترب والدي مني ومن دون أي كلمة تتبعت عيناه الزهرة الصفراء التي كانت تدور مع الماء بفترات منتظمة. تدور.

لم تكن العين تصب في أي مكان وأثبتت الزهرة الصفراء ذلك بدورانها المنتظم. وبينما كنت أراقب حركة الماء قهقه والدي فنظرت نحوه مطالبًا بتفسير ليقول لي بعدما سيطر على ضحكاته:

- هل حسبت سرعة دوران الماء؟

هززت رأسي إيجابًا وقلت:

- تخرج الزهرة من بين الصخرتين كل ١٧ أو ١٨ ثانية..
- ١٧ ونصف.. لتكون دقيقًا..

لم أفهم سبب قهقهة والدي ليفسر لي:

- جدتك.. كما كان يصفها جدك رحمه الله.. بأنها أكثر شخص يتكلم في العالم وأنها تتكلم ٢٤ ساعة في ٧ أيام.. طوال الأسبوع..

ابتسمت لقول والدي وفهمت سبب قهقهته:

- ٢٤ دورة كل ٧ دقائق..

قلت له.

هز والدي رأسه وهو يبتسم وأكمل:

- يبدو أننا سنزور جدتك!

لم تأخذ الطريق إلى بيت جدتي طويلًا. طرق والدي الباب فجاء الصوت من الداخل مُرَحبًا:

- ادخل يا ابني!

ذلك نداء لم يوجه لي بحياتي أبدًا لكنني وددت لو حدث ذلك.

رغبتي بذلك منعتني من استيعاب الكثير مما دار بين أبي وجدتي التي كانت تصبغ شعرها الأبيض بواسطة الحناء الأحمر.

- له خصائص علاجية كثيرة..

أبانت لي.

- هناك بعض الشعرات.. عند مقدمة رأسك!

أشرت لها فابتسمت وحملت مرآة يدوية بيدها اليسرى وغمست أصابع يمناها بوعاء من الحناء لتصبغ شعرات ناصية رأسها. لم تتكلم جدتي وهذا أثار الشكوك بداخلي. نظرت إلى والدي الذي قام واحتضن والدته بحنان قبل أن تقول له:

- رضي الله عليك.. يا ابني.. أنت وابنك..

نظرت جدتي بعدها نحوي وقالت:

- هذا ليس الدرع الذي تبحث عنه..

لم أتكلم لدقيقة ثم سألتها:

- العائلة..

ابتسمت جدتي بينما كانت تهز رأسها يمينًا وشمالًا قبل أن تعطيني المرآة الصغيرة وأشارت برأسها إلى باب إحدى الغرف.. غرفة جدي رحمه الله.

قمت والمرآة بيدي ولحقني والدي إلى الغرفة. أشار والدي لي بالدخول قبله ففعلت. كانت الغرفة فارغة إلا من صندوق صغير موضوع على طاولة خشبية قديمة.

اقتربت من الصندوق وفتحته ليقترب والدي منه ليرى ما بداخله، كانت ورقة صغيرة مكتوب عليها كلمة واحدة فقط بخط اليد.. "*طالب*". امتعض والدي لذلك فابتعد واتكأ على أحد الجدران وقال:

- هذه هي العلامة.. التي تثبت فشلي..

نظرت إلى أبي وقلت:

- هل سأبدو مثلك لو أطلت شعري قليلًا؟
- ستبدو مثل جدك.. تمامًا!

رفعت المرآة بيدي اليسرى والورقة باليمنى وابتسمت. علّق والدي على ذلك:

- انظر إلى نفسك.. فأنت تشبهه حقًا.. رحمه الله..

لكنه لاحظ بعد ثوان بأنني لم أكن أنظر إلى نفسي، بل إلى الدرع. وبينما كانت الورقة بيميني والمرآة بيساري، ابتسم ثلاثتنا، أبي وأنا وجدتي التي لحقت بنا.

- إنه محق!

قال والدي.

- أقسم.. بالله.. أنه كذلك!

أكدّت على كلامه.

هل وظفك؟

لم تكن حال شريف تختلف كثيرًا عن حال أغلبية الخريجين من جيله فمعظمهم يبحث عن أمر ما: عروس، منحة لإكمال دراسته، وبحالة شريف، عمل. لم يكن البحث عن عمل صعبًا لكن إيجاد واحد كان كذلك فباستخدام الإنترنت يمكنك البحث عن الكثير من الأعمال المتوفرة لكن أن تُقبل بهذا العمل فهو أمر آخر. وجد شريف إعلانًا لعمل على الإنترنت وكان وصف العمل "بائع كماليات سيارات" كان ذلك العمل ملائمًا لشريف فهو لطالما أحب السيارات وكل ما يتعلق بها تقريبًا.

استيقظ شريف في اليوم التالي بعد ليلة طويلة قضاها على الإنترنت يقرأ الأسئلة المتكررة في لقاءات التوظيف. ذهب شريف إلى الشركة وعندما دخلها وجد أن معظم الموظفين كانوا غائبين يومها فلم يكن هناك سوى شخص واحد وكان هو المسؤول عن التوظيف. ولقلة الموظفين في الشركة يومها اهتم المسؤول بأمور

أخرى مثل البيع فكانت تلك بشرى خير لشريف فعلى ما بدا كانت الشركة تحتاج إلى موظفين كثر مما يزيد فرص توظيفه.

كان هناك شابان آخران قبله ليقدما للشاغر الوظيفي فلم يفعل أي شيء سوى الاستماع لمقابلتيهما. تناول مسؤول التوظيف ملف السيرة الذاتية للمتقدم الأول وقرأ اسمه لنفسه ثم سأل:

- كم لغة تجيد؟

- العربية والإنجليزية والعبرية والفرنسية وقليل من الألمانية

هز مسؤول التوظيف رأسه باعجاب ثم سأل:

- وكيف تقيّم خبرتك بالحاسوب؟

- حاصل على شهادة قيادة الحاسوب الدولية

- جيد، وهل عملت بالمبيعات من قبل ولمَ لمْ تبق بالعمل إن كان جوابك "نعم" على السؤال الأول؟

- نعم، وازدادت نسب المبيعات بالقسم الذي عملت به بنسبة ٢٢ ٪ وسبب تركي للعمل كان تبني الشركة سياسة جديدة تعطي أولوية العمل لسكان المدينة نفسها

بدا على مسؤول التوظيف الانبهار مما سمع وبدا الانبهار على وجه شريف أيضًا، والخيبة كانت ظاهرة على وجهه كذلك. سلم المدير على المتقدم الأول وأخبره بأن الشركة ستتصل به لاحقًا. قام المتقدم الأول وجلس مكانه الشاب الثاني.

بدأت المقابلة الثانية بقراءة مسؤول التوظيف اسم المتقدم ليسأل ببهجة:

- والدك هو الحاج اسماعيل؟!

- نعم، هو

- الحاج اسماعيل أبو سمير!! صاحب شركة الشفافية للسيارات وصاحب العمارة المجاورة لنا؟

- هو بعينه

بانت على مسؤول التوظيف ابتسامة كبيرة ثم سلّم بحرارة على الشاب وأعطاه رقم جواله وقال له:

- هاك رقمي، اتصل بي وقتما أحببت البدء بالعمل

ابتسم الشاب بدوره وقام.

جاء دور شريف المتوتر ليقابل لكن قبل أن يجلس أمام مكتب مسؤول التوظيف، اعتذر الأخير وطلب من شريف إعطاءه خمس دقائق. خرج شريف يتمشى أمام الشركة وأجرى اتصالًا هاتفيًا ايضًا ثم عاد بعد ربع ساعة إلى الداخل.

وقبل أن يبدأ مسؤول التوظيف بسؤال شريف، دخل شاب أنيق يلبس قميصًا أسود اللون إلى الشركة وألقى السلام قبل أن يصل المكتب ثم سأل:

- أيوجد عندكم مشغل اسطوانات اس تي اف يو للسيارات؟

فأجاب المدير بالإيجاب وهم بمساعدة الزبون لكن شريف أشار للمدير بيده أن يستريح مكانه وقام هو لتلبية طلب الزبون مُرحّبًا:

- أهلًا وسهلًا، أنرت الشركة

- من نورك، أين المشغلات التي سألت عنها؟

كانت المشغلات على يمين الشابين ولم يكن هناك سوى جهازين فقال شريف:

- حظك جميل!

خفت بعدها صوتهما ولم يبن سوى إشارات شريف الموحية بجودة المنتج للزبون الذي ظهرت ملامح الإعجاب على وجهه. كان المدير مسرورًا مما رأى فاستراح في كرسي مكتبه الجلدي.

وأخيرًا، هز الزبون رأسه بإشارة موافقة على شراء الجهاز وابتسم شريف لهذا فقام المدير إليهما قبل أن يسأل الزبون:

- ممم، ما رأيك؟

- رائع جدًا، وأظن أن سعره مناسب أيضًا ف ٥٠٠ شيكل قليلة على جهاز بهذه الجودة وفيه ميزات لم أعلم بها من قبل أن يخبرني بها هذا الموظف الآن

حمل الزبون الجهاز وغادر، وابتسم كل من شريف ومسؤول التوظيف ليقول الأخير لشريف:

- مكانك محفوظ بالشركة

سر شريف لسماع هذا وبينما كان يهم بالخروج من الشركة دخل شاب آخر من جيل شريف وكان ذلك الشاب صديقًا مقربًا من شريف فسلم أولًا على المدير ثم سلم على شريف بحرارة وقال:

- أين أنت يا رجل؟! اتصلت عليك البارحة ولم تجب، واتصل بك عيسى أيضًا لكنك لم تجب. بالمناسبة، رأيت عيسى قبل قليل وبدا أنيقًا جدًا بقميصه الأسود، يبدو أنه مغرم! المهم، كان يحمل جهاز اس تي اف يو، أتعرفه؟ إنه جهاز رائع، أخبرني أنه اشتراه توًا بـ ٥٠٠ شيكل وأخبرني أيضًا أنك ستشتريه منه، أحقًا كان ما أخبرني؟ كنت أود الاستفسار منه لكنه كان مستعجلًا! على كل حال، إن كان لك أم له، ما رأيك أن نسهر هذا الخميس معًا؟

كلمات حية

أكثر من أربعين سنة انقضت لكنني أتذكر جيدًا قول والدي لي عندما كنا نقطف الزيتون كل عام "كل صبح اشرب زيت زيتون.. تِكْدَر تهد الباطون!" كان يقول ذلك كلّما رفع مقطفًا ثقيلًا ممتلئ بالزيتون. توفي والدي لكن بقيت كلماته حية؛ فأنا أتذكرها كل صباح عندما أشرب فنجان قهوتي.

حطام

منذ ثلاثة عشر ساعة وخبر فقدان أثر الشرطي الذي كان بمناوبة لوحده على الطريق الشمالي أثار قلقي فأنا أعمل بذلك الطريق ولوحدي أيضًا. منذ سماع ذلك الخبر لم أخرج من سيارتي إلّا للبحث عن شيء قد يساعد بإيجاد زميلي في السلك. لم يكن يومًا جيدًا من البداية فبدايته كانت بترك زوجتي لي ولأخذها طفلي معها وهذا كان سببًا آخر دفعني للبحث عن الشرطي رغم أن اليوم إجازة لي لكني رأيت أن عملية البحث ستساعدني بتخطي أزمتي العائلية.

فقدنا آخر أثر للشرطي الساعة الرابعة وعشر دقائق البارحة حين أرسل عبر اللاسلكي نداء يشير إلى تتبعه سيارة مشبوهة، لم أستمع إلّا لتسجيل للنداء. لكن المقلق كان نبرته التي أشارت إلى سوء حاله. طوال الليل وأنا أذهب وأجيء بسيارتي على الطريق الشمالي وكنت أحيانًا أترجل من السيارة وأضيء

بالمصباح اليدوي على أطراف الطرقات علني أجد أثرًا للشرطي لكن دون جدوى.

وجدت أمرًا آخر أخذ انتباهي ووقتي فأثناء بحثي عن أثر للشرطي المفقود رأيت سيارة فورد برونكو حمراء موديل ٩٢ تسير بتهور فسرت خلفها وأطلقت البوق مرتين ليركن سائق السيارة جانبًا لكنه لم يلبّ الأمر. أبدلت شدة إضاءة أنوار سيارتي عدة مرات فانتبه السائق وتوقف. ترجلت من سيارتي بحذر ويدي على مسدسي المعلق على حزامي. عندما وصلت باب سائق السيارة أمرته بالنزول فنزل بهدوء. كان رجلًا بأواخر عشرينياته وكان أخرسًا فلم أستطع التواصل معه بشكل جيد لكنه أشار لي إلى المقعد الخلفي لسيارته فنظرت ووجدت امرأة بمخاضها. وكانت ماء رأس الجنين قد سالت بالفعل فتوجب علينا إيصالها إلى أقرب مستشفى بسرعة. حالة الرجل كانت رثة جدًا فنقلت وإياه المرأة إلى سيارتي. ركن الرجل سيارته بعيدًا عن مسار السيارات ورافقني إلى أقرب مستشفى.

رافقت بهدوء الرجل وزوجته إلى قسم التوليد بالمستشفى وعدت إلى سيارتي وكنت نعسًا جدًا. فتحت الباب وركبت السيارة لأجد زجاجتي خمر عند دواسة الوقود فاستغربت ذلك لوقت قصير، فالنعاس غلبني سريعًا. نمت لوقت لم أعلم كم طال ولم استيقظ إلّا على صوت نداء اللاسلكي "تنبيه! تنبيه! إلى كل الوحدات المتوفرة على الطريق الشمالي، وجدنا سيارة الشرطي المفقود في حادث سير قاتل بالواد خلف محطة الوقود الرئيسة على الطريق. السيارة الأخرى هي فورد برونكو حمراء موديل ٩٢. جميع من في الحادث لقوا حتفهم. الشرطي وركاب السيارة الثانية وهم رجل أبيض بأواخر عشرينياته وزوجته الحامل.. الرجاء التوجه إلى مكان الحادث..."

ضياع

ما الأصعب: أن تضيع جسدًا أم روحًا أم ذاكرة؟ كلها صعبة، وما يزيدها صعوبة هو عدم إدراكك لضياعك. أما معرفتك بأنك ضائع فهذه الخطوة الأولى نحو عودتك إلى الطريق الصحيح، إن كنت عليه في المقام الأول.

أعلم أنني ضائع، لم أفقد عقلي كله وهذا جيد إلى حد ما، فهذه النقطة ستكون نقطة إنطلاقي لإيجاد ما ضاع من ذاكرتي.
استخدمت "ما" للتخفيف من شدة الحادثة، فأنا أعلم أن "ما" يرافقها "من" في حالتي. لا أعلم "من" تمامًا لكنني أعرف أنني افتقدت ناسًا، وربما هم افتقدوني! كم أنا متفائل! لا أحبذ استخدام "فقد" فهي توحي إلي باللاعودة وأنا أحب عودة ما نحب إلينا وعودتنا إلى ما نحب، "ما" هنا بالطبع تشمل "من".

"من" أنا؟! استيقظت بعد عدة أيام في غرفة مستشفى خاص بمدينتنا ليخبروني بأني تلقيت ضربة على رأسي خلال مظاهرة

ما. تحسست رأسي فلامست أطراف أصابعي مكان الضربة. لم يكن هناك أحد من عائلتي في المشفى لحظة استيقاظي. حاولت ذكر أسمائهم لنفسي فتذكرتهم جميعًا. تكلمت مع نفسي لطمأنتها. سميت ما رأيت في الغرفة. "ما" هنا لا تشمل "من".

لم يكن أحد بالغرفة سواي. لم أضغط على زر استدعاء الممرضة. حاولت تذكر السبب الذي جاء بي إلى هنا، لم أقدر. إلّا أنني شاهدت صورًا متقطعة لعدد غفير من الناس، وفتاة، لوحدها. لا الناس ولا الفتاة ظهروا بصورة واضحة. لا أعلم إن كانت تلك بواقي ذكريات أم مجرد تخيلات!

هناك سبب دفعني لقول "بواقي ذكريات" فالطبيب أخبرني بأن جزءًا بسيطًا من ذاكرتي قد تضرر فحاولت تذكير نفسي بكل الناس والأمور والأحداث التي عرفتها. لكن كيف أذكر نفسي بشيء أو "شخص" مُحي من ذاكرتي؟! الأمر كأنني طلبت من نفسي أن تتعرف على شخص لم تقابله قط!

سرُّت عائلتي بحالتي بادئ الأمر، والأطباء كذلك. صحتي البدنية كانت جيدة جدًا واستطعت أن أتعرف على أسماء أفراد عائلتي

بسهولة. سررت بذلك جدًا أولها، إلّا أن ذكرهم لأسماء وأحداث لم أميز منها أمرًا أثار فضولي، ثم قلقي. هونت على نفسي بأنهم كانوا يتحدثون عن شؤون تخصهم.

ملامح جهلي بالمواضيع التي تحدثوا بها ظهرت جليًا على وجهي. فسألتني أختي سماح "أنت لا تتذكر، أليس كذلك؟!" لو مددت يدي نحوها لاستطعت ملامسة الشفقة التي رافقت حروفها!

لم يكن صعبًا عليّ ملاحظة نظرات أمي اللائمة لأختي فأدركت أن ما ضاع كبير. "ما" هنا تعني "من".

احتواء

goodreads/Abdullah Abu Snaineh